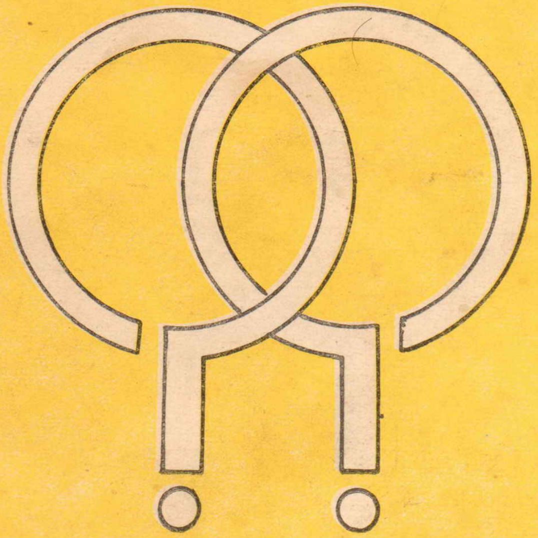
القرآن

الكناني

ماذا تعرف عنه



مجيد المسلماوي

القــرآن مـــاذا تعرف عنه .. ؟

الإهداء

إليهم فقط ...

أولئك الذين يرتقبون يوم الإسلام ...

ويعملون في سبيله ...

بوعي ..

وأناة ..

وأمل ..

أولئك الذين يدركون بعمق ..

أن كل زاد سوى زاد الإيمان ينفد ..

وكل سند سوى سند الله ينهار .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا والأئمة الهداة من اله الطاهرين

هذا الكتاب :

فكرة ..

ورغبة ..

وهدف .

فكرة نمت ، وترعرعت بمرور **الوقت حتى افرزت رغبة ..** **في** كتابة هذا الشتيت من **الفصول عن القران الكريم .. بهدف** تقديمها زادا ينفع الراغبين المتطلعين .

وكفى بالله هاديا ومعينا .

إفتتاح

قال النبي الكريم (ص) :

كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل .

هو الذي من تركه من جبار قصمه الله .. ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله .. فهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم .

وهو الذي لا تزيغ به الاهواء ، ولا تلتبس الالسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق من كثرة الرد .. ولا تنقضي عجائبه .

وهو الذي لم ينته الجن اذ سمعته ان قالوا :

((انا سمعنا قرآنا عجبا)) .. !!

وهو الذي من قال به صدق ..

ومن حكم عدل ..

ومن عمل به أجر ..

ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم .

وقال أمير المؤمنين (ع) :

واعلموا .. ان هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغش ، والهادي الذي لا يضل، والمحدث الذي لا يكذب..وما جالس هذا القرآن احد الا قام عنه بزيادة او نقصان .. زيادة فى هدى ، او نقصان فى عمى .

واعلموا .. انه ليس على احد بعد القرآن من فاقة ، ولا لأحد قبل القرآن من غنى فاستشفوه من ادوائكم ، واستعينوا به على لأوائكم .. فان فيه شفاء من اكبر الداء وهو الكفر والنفاق ، والغي والضلال .. فاسألوا الله به .. وتوجهوا اليه بحبه ، ولا تسألوا به خلقه انه ما توجه العباد الى الله بمثله .

واعلموا .. انه شافع مشفع .. وقائل مصدق ، وانه من شفع له القرآن يوم القيامة شفع فيه .. ومن محل به القرآن يوم القيامة صدق عليه .. فانه ينادى مناد يوم القيامة :

« الا ان كل حارث مبتلى فى حرثه وعاقبة عمله .. غير حرثة القرآن » فكونوا من حرثته واتباعه .. واستدلوه على ربكم .. واستنصحوه على انفسكم ، واتهموا عليه آراءكم ، واستغشوا فيه اهواءكم .

من الخطبة رقم ١٧٤/١

تحدثوا: عن القرآن ..

١ ـ « القرآن اوسع الكتب تلاوة على وجه الارض » .

الموسوعة البريطانية (تحت مادة محمد)

٢ ـ « القرآن مهما كان محتواه ، لكنه ليس من صـنع بشر .. فاذا انكرنا كونه من الله فمعنـاه اننـا اعتبرنـا محمداً هو الاله .. !! » .

(نبيا أبوت) استاذة الدراسات السامية بجامعة الملكة في كالفورنيا في كتابها (الخط العربي)

٣ ـ « القرآن كتاب وضعه محمد..! هذا هو ايماننا به ، ولكنه عمل فوق مستوى البشر ان ياتي بمثله .. هذا ما نرغم على الاعتراف به » .

(جون رسك) في كتابه (السمو البشري) طبع في نيويورك

٤ ـ « القرآن لا يزال مصــدر الاشــماع .. والكتــاب المقدس عند المسلمين ، ومهما اختلف المسلمون فى تفسيره فانهم لم يختلفــوا في كونه وحيا من الله .. بل اجمعوا على أنه كلام الله لفظا ومعنى .. وهل يستحق القرآن كل هذا الاعظام .. ؟

اقول : نعم هو كذلك .. !! »

(دكسن روز) مقدم ترجمة جورج سال طبع في نيبورك

٥ ـ « انه في صالحنا نحن الاوربيين ان نعتبر القرآن وحيا سماويا.. ونتامل في معانيه ، بدلا من ان تتيه بنا الافكار في مجاهل تحكمها الاوهام والعصبيات » .

(جورج تليتا) مؤلف ايام فى الشرق طبع فى لندن سنة ١٩٥٦ .

٦ ـ « ان كل ما في القرآن صــورة صــادقة كاملة لمــا اوحي به الى محمد .. ونستطيع ان نؤكد ـ استنادا الى اقوى الادلة ـ ان كل آية من القرآن دقيقة في ضبطها تماما كما تلاها محمد » .

(وليم موير) في كتابه حياة محمد

القرآن .. تعريفه/اسماؤه

لم يتفق العلماء والباحثون المعنيون بدراسة القران الكريم على تعريف محدد له .. وجراء ذلك وجدت تعاريف عديدة تختلف من جهة اللفظ والصياغة، وتتفق من جهة المعنى المهدوف .

ومع ذلك فان بامكاننا الخروج من مجموعة تلك التعاريف بمحصلة نهائية هي أن القرآن :

كلام الله المعجز .. الذي اوحاه الى رسوله محمد (ص) ـ بلسان عربي ـ لفظا، ومعنى، واسلوبا .. المكتوب في المصاحف، المنقول عنه بالتواتر .

ولقد نعت الله سبحانه كلامه هذا بجملة اوصاف نذكر منها :

١ ـ (الفرقان) قال تعالى : (تبارك الذي أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) . الفرقان ـ ١

ومادة الفرقان تفيد معنى التفرقة .. وتشير الى الدور الحاسم الذي يلعبه القرآن الكريم في التفريق بين الحق والباطل .. والفوز بين الهدى والضلال .. وتوضيح الحدود بين طريق الجنة، وطريق النار .. والتميز بين مناهج السماء العادلة، ومناهج الارض الجائرة وبيان سبيل الخير وسبيل الشر في سلوك الانسان في كل عصر وظرف .

٢ ــ (الذكر)قال تعالى : «وانه لذكر لــك ولقومك وسوف

تســـآولون » الزخرف ــ ٤ وقـــال :
« وهذا ذكر مبارك انزلناه » الانبيـــاء ــ ٥١

والذكر هو الشرف .. ووصف القرآن بالذكر اعلان عن الشرف السامق الذي ناله رسول الله (ص)بتبليغه كــلام الله تعالى .. وبيــان للمكانة الرفيعة التي حازتها الامة المسلمة بحملها اطروحة السماء العادلة الكاملة الى البشرية جمعاء .

٣ ــ (التنزيل)قــال تعالى : «وانــه لتنزيل مــن رب العالمين »
. الشعراء ــ ٩١٢

ومهما يكن من امر تعدد اوصاف كلام الله ، فانه سبحانه اختــار لفظة جعلها اسماً لايشاركه به غيره .. وعلما موقوفا عليه وحــده ، وتلك اللفظة هي (القرآن).

والقرآن اسم ينطوي على كثير من السحر ، والطلاوة ، والتوهج والجمال .. ويمثل لوناً من ألوان الاعجاز،والتفوق،والروعة .. ولكن اعتياد اذهاننا عليه افقدنا الاحساس بوقعــه ، والتأثر بحسنه حــتى حسبه البعض اسما عادياً كبقية الاسمــاء ، في حين اننــا «لوتاملنــاه بنظرة فاحصة لأخذتنا الدهشة ، ولعلمنا ان الذهنية البشرية لوجهدت مجتمعة لما توصلت الى هذه اللفظة اسما لكتاب القرآن .. اي الكلام

الــذي يستحق ان يقرأ على البشريــة ، والــذي يستحق ان تقرأه البشرية .. !

القرآن ..

انطاق بعقلك مع هذا الاسم ، وابحث كــل عمرك عن اســـم علمي .. بليغ .. حيوي موجز .. جـــزل اللفظ متين البنـــاء .. رائع الايقاع .. معبر عن كتاب الله للناس فلن تجد غير القرآن ».(١)

---

(١) علي الكوراني / فلسفة الصلاة / ص ٢١٢

لنزول القرآن حكاية

قبل ان يبعثه الله .. كان محمد (ص) يحس بالالم العميق لما عليه قومه من عقائد الشرك المهلهلة ، وتصوراتها الهابطة ، وطقوسها الهزيلة . وهو وحده (ص) فى ذلك المجتمع الفاسد كان يشم رائحة العفن .. عفن العقائد ، وعفن الافكار ، وعفن التصورات .. ويرى حطام تلك العقول النخرة ركاماً فوق التراب .. !!

وكان (ص) يشعر بحاجة واقع الناس الى اصلاح وتغيير ، وان الارض تنتظر منقذا ومخلصا .

وفي خضم هذه المشاعر والاحاسيس لم يكن امام عينيه طريق واضح .. ولا سبيل معبد .. ولا منهج محدد يطمئن اليه ويرضاه .

ولقد ادرك (ص) ان حركة الحياة مع الناس تفسد على الانسان كثيرا من وعيه ، وشعوره .. وانه لابد من عمل يحفظ للجهاز النفسي سلامته وقوته ، وللذهن نقاوته ومرونته، وللشخصية مستواها العالى .. وخصائصها الممتازة .

ومن ثم صار أحب شيء لديه .. وآثر حال عنده أن يخلو لوحده .. وينفرد بنفسه ،ولم يجد في فناء الكعبة الملىء باصنام الناس وحركتهم ، وفضولهم مكانا يصلح للخلوة ، والتفكير ، والتامل ..فصوب نظره نحو جبال مكة يبحث فيها عن مكان .. ورضيت نفسه جبل (النور).. واستراحت الى غار فيه ، فعاد الى زوجه الحبيب :

ــ يام القاسم اني احببت ان اخلو فى حراء ياما .. فهيئي لي زادا ، وماء ، وحصيرا .

وهكذا صار (ص) يعتزل في حراء اياما من كل عام .

في كل عام ..

ينطلق الى الجبل يسلك تعاريجه بخطاه الجليلة .. «يحمل الاداوة في يد ، وزاده المبارك في يد ، ويلف الحصير والرداء تحت ابطه .. والحصى يثبت تحت قدميه ، والصخور تشم اثوابه حتى يصل الى حراء .. » . (٢)

وهناك في غار حراء ..

في ذلك المكان المقفر المعزول الذي يلفه جلال الهدوء ، ويكلله وقار السكينة والصفاء .. يبدا عبادة الانبياء .

هناك .. بعيدا عن صخب الناس ، وضجيج الحياة ، وشواغل الارض .. كان (ص) يعيش أياماً غارقاً في عالم من التفكير والتأمل .. سارحا مع نفسه الشفيفة ، متدبرا فيما حوله من ظواهر السكون ومشاهده .. مستنطقا الوجود عما وراءه من قوة فنانة واعية ، ويد خالقة مبدعة . وروحه تسبح مع روح الوجود ، تعانق هذا الجمال وتنبهر بذاك الكمال .

وفي غار حراء ـ غار النور ، والخير ، والسلام ـ كان (ص) يستلهم ماوراء الطبيعة من غيب مكنون سبل الهداية ، واسلوب العمل .

وفي اعظم لحظة مرت بهذه الارض في تاريخها المديد .. لحظة

---

(٢) علي الكوراني / مكة في ضمير المسلم / ص ٨٤ .

من أنور اللحظات ..

واسعد اللحظات ..

وأروع اللحظات ..

حان المخاض ، ونزل الفيض ، وتفجر النبع ، وأزف الموعد .. موعد العتاق الانسانية من أسارها ، وخلاص الارض من أوضارها .

في هذه اللحظة .. أكرم الله ـ سبحانه ـ الانسانية كرامة تكاد لاتتصور ، وتكاد لاتشكر .

في هذه اللحظة .. انسكب النور من ابواب السماء على هذا الكوكب .. وتحددت الجهة التي يتلقى الانسان منها تصوراته ، واحكامه ، ومفاهيمه .

في هذه اللحظة .. هبط (٣) جبريل (ع) على النبي (ص) وهو في غار حراء ليحمله الامانة الكبرى .. امانة تحويل المسار وتغيير الحياة ، واصلاح الواقع .

---

(٣) لا شك ان المقصود من النزول بالنسبة للقرآن الكريم ليس هو النزول المادي من مكان عال الى مكان دان كما يتبادر الى الاذهان في اطار الفهم الساذج .. فالنبي (ص) تلقى القرآن عن طريق الوحي .. ونظرا الى انه كان يتلقى الوحي الالهي من جهة عليا وهي الله سبحانه وتعالى يقال عادة ان القرآن نزل عليه ، اشارة باستعمال لفظة النزول ـ الى علو الجهة التي اتصل بها (ص) عن طريق الوحي وتلقى منها هذا القرآن .

هبط جبريل يقول :

«اقرأ باسم ربك الذي خلق ..خلق الانسان من علق .. اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم .. علم الانسان مالم يعلم » .

وكانت هذه الايات اروع افتتاح لاعظم رسالة .. افتتاح يلتقي وحقيقة الانسانية تمام الالتقاء .. في جميع مقوماتها وخصائصها الرئيسة : الفكر ، والعلم ، والوحدة البشرية الشاملة المرتبطة بآصرة الخلقة .. والمشدودة الى أقوى ، وأقهر ، وأقدر قوة في الوجود وهو الله سبحانه وتعالى .

ولقد اشعلت هذه الآيات قتيل اعتى ، واعنف معركة عرفها التاريخ .. بين الشرك والتوحيد ، والنور والظلمات ، والخير والشر ، والهدى والضلال .

ومثلت بداية اضخم حادث بحقيقته .. واروع حادث بدلالته.. واعمق حادث بآثاره في حياة الناس كافة في مختلف الاعصار والادوار.

وصارت ـ هذه الآيات بيانا أولا لرسالة السماء اعلنت فيه انه آن الاوان لتطهير الارض من ارجاس الشرك والغواية .. آن الاوان لولادة عالم جديد ..

وفكر جديد ..

ونظام جديد ..

وعلاقات جديدة .

آن اوان الثورة .. !!

أن اوان مسيرة محمد رسول الله (ص) ... مسيرة النور ، والخير والسلام .

هكذا .. وبهذه البساطة والوضوح كانت بداية نزول الوحي على رسول الله (ص) .. بداية واضحة ، ورائعة ، وطبيعية .

ولكن الرواة والقصاصين ــ وهذا ديدنهم ــ لم يتركوا الامور على طبيعتها .. والقضية على حقيقتها وصدقها .. انما اضافــوا اليها (مساحيق) شوهتها ، ورتوشا مسختها وجاؤوا بقصص يرفضهــا العقل .. ولا يرتضيها المنطق .

قال ابن اسحاق في كتاب السيره (٤) : «خرج رسول الله (ص) الى حراء كما كان يخرج لجواره مع اهله .. حتى اذا كانت الليلــة التي اكرمه الله فيها برسالته .. ورحم العباد بها ، جاءه جبريل بامــر الله تعالى .

---

(٤) يخطىء البعض حينما يحسب ان كتاب (سيرة ابن هشام) هو من تاليفه .. ! فالمسالة ليست على هذا الوجه .. اذ ان مــؤلفه الحقيقي هو : محمد بن (اسحاق) بن يسار بن خيــار المولود فى المدينة سنة ٨٥ هـ والمتوفى سنة ١٥٠ ، وقد الفه نزولا عند رغبة (المنصور) الخليفة العباسي لغرض تثقيف ولده (المهدي) .. وبعد مضي حين من الدهر قام عبد الملك بن (هشام) بن ايوب الحميري المتوفى سنة ٢١٨هـ بتلخيص هذا الكتاب واستبعاد تاريخ الانبياء من ادم الى ابراهيم ... واضافة طائفة من الروايات التى فات (ابن اسحاق) ذكرها فجاء كتاب السيرة معروفا باسمه .. منسوبا اليه حتى ليكاد الناس ينسون معه (ابن اسحاق) مؤلف الكتاب الاول . راجع مقدمة سيرة ابن هشام / تحقيق مصطفى السقا وآخرين .

قال رسول الله (ص) ـ والكلام لايزال لابن اسحاق ـ فجاءني جبريل وانا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب .. فقال : اقرأ .. قلت ما أقرأ .. ؟ ! قال : فغتني حتى ظننت انه الموت ثم ارسلني فقال اقرا .. قلت : ما اقرا .. ؟! قال : فغتني حتى ظننت انه الموت ثم أرسلني فقال : اقرأ .. قلت : ماأقرأ ..؟! ما أقول ذلك الا افتداء منه ان يعود الي بما صنع بي ـ فقال : (اقرأ باسم ربك الذي خلق ... الى اخر الايات)

قال (ص) : فقراتها ثم انتهى فانصرف عني .. وهببت من نومي وكأنما كتب في قلبي كتابا .. ؟! .. (٥)

الى هذا الحد رواية ابن اسحاق .. وقد اضاف اليها (الطبري) باسناده عن (المدعو)عبيد بن عمير هذه الاضافة السمجة : «قال (اي النبي ص) : ولم يكن من خلق الله أحد ابغض الي من شاعر او مجنون .. لاأطيق النظر اليهما ..! قال : قلت ان الأبعد ـ يعني نفسه ـ لشاعر او مجنون ، لاتحدث بها عني قريش أبداً .. لاعمدن الى حالق من الجبل فلا طرحن نفسي منه (فلاقتلنها) فلا ستريحن .. قال فخرجت اريد ذلك حتى اذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتا من السماء في صورة رجل صاف قدميه في افق السماء يقول : يامحمد انت رسول الله وانا جبريل .. قال : فوقفت انظر اليه وشغلني ذلك عما اردت .. !! » (٦)

---

(٥) سيرة ابن هشام / ج ١ / ص ٢٥٣

(٦) تاريخ الطبري / ٢ \ ص ٣٠٠

ولنرجع الى ابن سحاق الذي يتم روايته بقوله : ان النبي بعد ان (هب)من نومه ((وكانما كتب في قلبه كتابا))رجع الي اهله ودخل على خديجة فجلس على فخدها والتصق بها وحدثها بالذي وءاه فقالت : ابشر يابن عم واثبت فو الذي نفس خديجه بيده لارجو ان تكون نبي هذه الامه .. ثم انطلقت الى ابن عمها (ورقةبن نوفل) وكان نصرانياً قارئاً للكتب ، سامعاً من أهل التوراة والانجيل ، فاخبرته بما اخبرها رسول الله (ص)فقال ورقة : قدوس .. قدوس ، والذي نفس ورقة بيده لئن صدقتني ياخديجة لقد جاءه الناموس الاكبر الذي كان ياتي موسي ، وانه لنبى هذه الآمة فقولي له فليثبت .. !!

وكأن (ابن اسحاق) لم يكتفي بما اسبغ على روايته من طرافة وغرابة .. فالحق بها (حشوة) اخرى نقلا عمن يسميه (اسماعيل بن ابي حكيم) .. وقد اضفت هذه الحشوة على مجمل القصة بعداً (كوميديا)جديدا .. !

قال : حدثني اسماعيل بن حكيم مولى آل الزبير انه (حدث ..!) عن خديجة انها قالت لرسول الله (ص) اي ابن عم اتستطيع ان تخبرني بصاحبك هذا الذي ياتيك اذا جاءك ؟ قال (ص).. نعم .. قالت : فاذا جاءك فاخبرني به .

فجاءه جبريل (ع) كما كان يصنع فقال رسول الله (ص) لخديجة .. ياخديجة هذا جبريل قد جاءني .. قالت : يابن عم قم فاجلس على فخذي اليسرى ..فقام رسول الله فجلس عليها .. قالت : هل تراه ..؟

قــال : نعم .. قالت : فتحول فاجلس على فخذي اليمنى ، فتحول رسول الله فجلس على فخذها اليمنى ، فقالت : هل تراه .. ؟ قال : نعم .. قالت فتحول فاجلس في حجري .. فتحول رسول الله فجلس في حجرها .. قالت : هل تراه .. ؟ قال : نعم .. فتحسرت والقت خمارها .. ورسول الله جالس في حجرها ثم قالت : هل تراه .. ؟ ! قال : لا .. قالت يابن عم أثبت وابشر فو الله ان هذا لملك .. وماهو بشيطان .. ؟؟!

هذا ـ عزيزي القارىء ـ ملخص (مضغوط) لروايات بدايـــة نزول الوحي على رسول الله (ص) التي وضعها القصاصون .. وناسجو حكايات الجن والعفاريت .. !

والواقع ، اننا لانجد حرجا في ابداء شكنا العاصف بصحـــة هــذه الروايــات التي لاتعاني من شيء سوى التهافت والانحلال .. ولايبدو عليها شيء اوضح من الوضع والاختلاق..وبالرغم من امكانية مناقشتها .. وبيان زيفها من نــواح عدة فسنكتفي بــوضعها على (طاولة) النقد في اطار الملاحظات التالية :

الاولى : ان امعان النظر في هــذه الروايات ـ كما تنقلها كتب السيرة والحديث السائدة ـ يوضح بجلاء ان جميع اسانيدها تتفرع عن راوٍ واحد او اثنين وليس اكثر .. زد على ذلك مااشتملت عليه من غرابة ..وما افعمت به من مفارقات وتناقض .

الملاحظة الثانية : ان الصورة التي ترسمها هذه الروايات لبداية

نزول الوحي على رسول الله (ص) تختلف كليا عن صور بداية نزول الوحي على الرسل والانبياء السابقين .. حسبما تذكر بعض النصوص والروايات في هذا المجال .. كما ان القرآن لم ينقل صورة مشابهة لصورة هذه البداية .. بل هو يؤكد على ان الوحي الذي أنزل على رسل الله جميعاً متشابه في جوهره وغاياته : «انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح ، والنبين من بعده ، وأوحينا الى ابراهيم ، واسماعيل ، واسحاق ، ويعقوب ، والاسباط ، وعيسى ، وايوب ، ويونس ، وهارون ، وسليمان ، واتينا داود زبوراً ، ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ، ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما». النساء ـ ١٦٣ـ١٦٤

الملاحظة الثالثة : زعم هؤلاء القصاصون ان جبرئيل كان يغت (اى يعصر) النبي (ص) غتا شديدا الى درجة جعلت النبي يظنه الموت.. وهذا الغت فضلا عن كونه على نمط غت الكهان ووحيهم المزعوم لايعرف له تفسير معقول على الآطلاق .. اذ ماهو المقتضي لكل ذلك وماهي الغاية منه .. وما هي جريرة النبي (ص) حتى يعذب كل هذا التعذيب الذي يكاد يبلغ الموت .. ؟!

وهل لاتوجد وسيلة غير هذه الوسيلة المؤلمة لتبليغه (ص).. والايحاء اليه ... ؟

ثم كيف يتفق هذا (الغت) مع القران الكريم الذي لم يذكر عن بداية الوحي سوى قوله تعالى : «ولقد رءاه بالافق المبين» فاي افق هذا الذي ترسمه روايات بدء الوحي عليه (ص) .. ؟!

الملاحظة الرابعة : ان من ابده وأوضح مسلمات الفكر الاسلامي الأصيل ان الله تعالى قد منح النبي (ص) قدرة على تمييز الحقيقة من الزيف.. والواقع من الخيال .. بحيث لاتختلط عليه الوقائع ، ولاتتبهم الامور .. وهذا (زرارة) يقول سالت الامام الصادق (ع) : «كيف لم يخف رسول الله (ص)فيما ياتيه من قبل الله ان يكون مما ينزغ به الشيطان .. ؟ قال فقال (ع) : ان الله اذا اتخذ عبدا رسولا انزل عليه السكينة والوقار .. فكان ماياتيه من قبل الله مثل الذي يراه بعينه .. ! » (٧)

وقدأومأ الامام امير المؤمنين (ع) في بعض كلامه الى أن النبي (ص)كان مسددا ـ قبل البعثة ـ من لدن الله تعالى :«ولقد قرن به من لدن كان فطيما اعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم .. ومحاسن اخلاق العالم ليله ونهاره .. » (٨)

---

(٧) الطباطبائي / الميزان / ج ١٨ / ص ٨٠

(٨) قد يطرح سؤال : ترى هل يعني ذلك انه (ص) شاهد الملائكة وسمع كلامهم حتى فى مرحلة ما قبل البعثة .. ؟!

الجواب : ليس من شك ان شيئا من ذلك لم يحدث قبل البعثة استنادا الى عدد من الادلة الواضحة .. واما هذه الرواية فيمكن حملها على انه (ص) كان يحس بتعليم الملاك نوعا من الهدى الباطني .. والتوجيه الالهامى دون ان يسمعه او يراه .

الا ان هؤلاء الوضاعين رفضوا هذه الحقائق الواضحة وصوروه (ص) وقد اعتراه الخوف والذعر .. وركبه الشك والاضطراب الى حد يجعله يلتجيء الى خديجة ويحتمي بحجرها .. ! فهو لم يكن يدر بخلده انه مبعوث الي الناس ليهديهم سواء السبيل .. حتى بعد ان فهم الوحي وعرف غايته ، واستوعب الايات الاولى من التنزيل .

وما من ريب ان هذا الزعم في المحل الاول سماجة ، وقلة ذوق .. حيث يجعله (ص) مترددا مغفلا لايميز بين ابسط الامور ، ولآيتقبل أنصع الحقائق ، حتى أنه شك في كون ماشاهده وحيا الهيا من ملك سماوي القي اليه كلام الله بل ظنه من مس الشياطين .. !

ولكن خديجة ـ وفقا لهذه الروايات ـ كانت اذكى منه وابرع .. اذ عرفت كيف تحل اللغز ، وتمتحن هذا الشيء لتكتشف هويته .. هل هو ملك ام شيطان .. ؟ فاوعزت اليه (ص) ان يجلس على فخذها اليسرى ثم يتحول الى اليمنى ثم يجلس في حجرها .. والى اخر ما جاء في تمثيلية الراواة .. !!

الملاحظة الخامسة : يدعي صاغة هذه الروايات ان النبي (ص) لم يطمئن ، ولم يعرف انه مرسل الى الناس بشيرا ونذيرا .. وان نفسه لم تسكن الابعد ان طمأنه رجل نصراني مترهب . ترى كيف نوفق بين هذا الشك المدمر .. والفزع القاتل .. والضياع الرهيب.. وقوله تعالى : «قل اني على بينة من ربي» .. «واي حجة بينة في

نوفل ورقة » . (٩)

الملاحظة السادسة : مما لايحتاج الى برهنة وكثرة كلام ان الرسول (ص) انما كان يخلو في غار حراء التماسا للحقيقة .. ووصولا الى الله .. وبحثا عن الطريق .. ورغبة في اكبر وقت للتامل ، والتفكير . والعبادة .. وجميع ذلك يستلزم الاحتفاظ باعظم قدر من اليقظة ، والوعي ، والانتباه .. الا ان روايات بدء الوحي تزعم انه (ص) كان (نائما) في غار حراء حال نزول الوحي عليه .. فلما انصرف عنه هب (ص) من نومه وكانما كتب في قلبه كتابا .. !

وتبعاً لهده الروايات يكون التجاءه (ص) الى حراء طلب للدعة والنوم .. وحبا في الراحة والاستجمام .. ومعه تكون بداية نزول الوحي وما صاحبه من (الغت) أشبه باحلام النائمين . . ؟ ! !

الملاحظة السابعة : لعل من اظهر الدلائل على تفاهة واضعي هذه الروايات انهم زعموا ــ حسب تاريخ الطبري ــ ان النبي (ص) قال لنفسه ــ بعد انصراف جبريل ــ لعلي شاعر او مجنون .. وقد كان ــ كما يزعمون ــ لايبغض احد من خلق الله كبغضه للشعراء والمجانين .. فلم يكن ليطيق النظر اليهما .. ومن ثم فقد فضل (ص) قتل نفسه على ان تتحدث قريش عن شاعريته او جنونه «لاعمدن الى حالق من الجبل فلأ طرحن نفسي منه فلأ قتلنها ، فلأ ستريحن » وقد كاد ينفذ عزمه لولا ان سمع هاتفا من السماء يقول : يامحمد انت

---

(٩) الطباطبائي ــ المصدر السابق ــ ج ٢٠ ــ ص ٣٢٩

رسول الله .. !

ونحن لانريد ان نسأل هؤلاء الرواة عن دواعي بغضه (ص) للشعراء والمجانين .. فهذا شيء من اختصاصهم وحدهم .. ! وانما نسالهم فقط : كيف يحاول قتل نفسه وهو الذي عرف بالسداد ، والرزانة ، وبعد النظر ، وثاقب الراي ، وعلو الهمة ، ورباطة الجاش ، وتماسك النفس ، وارتفاع المعنويات .. ؟؟

ومن المؤكد ان انسانا يتمتع ببعض هذه المواصفات — وليس بها مجتمعة — لايمكن ان يفكر — مجرد تفكير — بالانتحار ولاي سبب من الاسباب .

وخلاصة القول : ان من عرف شيئا — ولو قليلا — عن حكمة الله في افعاله .. وشيئا عن وعي رسول الله (ص) واستقامته في سلوكه ، وتكامله في تصرفاته — وهو اكمل انسان خلقه الله لاتطمئن نفسه ابدا لمثل هذه الاكاذيب والمفتريات .

هذا .. ولامفر من الاعتراف بان القران الكريم لم ينقل لنا صورة واضحة المعالم عن كيفية بداية نزول الوحي عليه (ص) كما ان ائمة اهل البيت (ع) احجموا عن بيان ذلك ايضا (١٠) ولذا فنحن لانملك شيئا موثوقا يفيدنا في هذا المجال .. بيد ان ذلك لايسوغ القبول بأية صورة مهما بدت تافهة ، وواطئة ومسيئة .

---

(١٠) ذلك ان هذه المسألة — واشباهها — مسألة ثانوية لا تدخل في نطاق مهمات القرآن الكريم ولا مهماتهم عليهم السلام .

نعم يجوز لنا تصور بداية الوحي ـ حسب مقتضيات الموقف ـ بشكل ينسجم وخطوط التصور الاسلامي لحكمة الخالق سبحانه .. وعظم منصب النبوة ، وجلالة مقام الرسول الكريم (ص) .

يجوز لنا ـ مثلا ـ ان تتصوره (ص) «وقد اكمل تعبده السنوي وحمل اداوته ، وحصيره واتجه من هذا المكان الى مكة منحدرا بخطاه الوئيدة .. فاذا به يرى الجبل اضاء من كل جانب .. ويسمع صوتا يناديه : السلام عليك يامحمد .. !!

فوقف (ص) والتفت الى الصوت في اعلى الجبل رادا السلام فراى السماء منفتحة بفوار من نور جلل الجبل .. وانسانا يحط على مقربة منه .. فعلم ان شيئا من الله قد اتاه فخفق قلبه بخشوع لله واتجه الى الرجل ، فاعتنقه الرجل بالدموع ، وقبل جبينه وقال له : انا جبريل رسول الله اليك .. !

ان الله يقرؤك السلام .. وقد اختارك رسولا الى الناس لتبلغهم رسالته .. وتتلو عليهم اياته ، وتزكيهم ، وتعلمهم قرانا ينزل عليك وتعلمهم الحكمة التي يعلمك اياها .

وقد امرني عز وجل ان ابداك بالوحي والتنزيل في هذا اليوم ساعة منصرفك من تعبدك .. اعلمك واجيب على اسئلتك .. واتلو عليك اول ايات من كتاب ربك وهو خاتم الكتب واسمه (القران).. وهو سور كثيرة وايات .. وقد جئتك بست أيات من اول سورة منه وانا موافيك كلما امرني عز وجل حتي تكمل واجبك .. ويتم نصر الله لك

ثم تلا عليه قوله تعالى : (اقرا باسم ربـك الذي خلق .. خلق الانسان من علق ... الآيات) » (١١)

وعند هذا الحد .. يحق لنا التساؤل :

اليست هذه الصورة لبداية الوحي اكثر انسجاما مع خطوط التصور الاسلامي .. وابتعاداً عن نسج القصاصين .. واختـــلاق الرواة .. والمواقف التمثيلية الهزيلـــة .. ؟؟!

وفى نهاية المطاف .. خليق بنا التأكيد على ان معرفة كيفية بـدا الوحي ليســت من الاسس التى يقوم عليها الايمان بالاســلام .. ولا تمس - من قريب او بعيد - جوهر اليقين للانسان المسلم .. فلنا ان نتصــور هـذه البداية على اى نحو كان .. شرط الا يتعــارض ذلك التصور مع الخطوط العريضة ، والقواعد الرئيســية للفكر الاســلامي الاصيل .. ولا يتنافى مع العقل المستنير ، والرؤية الدينية السليمة .

(١١) الكوراني - المصدر السابق - ٨٩ .

اسباب النزول

مـن المعلوم ان طائفة كبيرة من ايات القران الكريـم نـزلت بسبب .. نـزلت جوابا على سؤال ، اودفعا لاشكال ، اوتعقيبا على حادث ، اوتسجيلا لموقف ــ سلبي او ايجابي ــ اتخذه بعض الصحابة، او بعض الناس من غير الصحابة .

وتبعا لذلك يكون سبب النزول هــو :

كل قضية ، او حادثة ، او سؤال كان سببا لنزول آية او اكثر.

والنماذج في هذا الميدان عديدة ومتنوعة .. فعندما سئل النبي (ص)عن قصة (ذي القرنين)وماجرى له ،نزلت جملة من الايــات تسرد احداث قصته ، وتبين وقائعها .. «ويسالونك عن ذي القرنين قل ساتلو عليكم منه ذكرآ» . الكهف ــ ٨٣

وعنـدمـا شيد المنافقون مسجدا ليكون وكـرا للتجسس على المسلمين والايقاع بهم .. وواجهة للاضرار بمصلحة الجماعة المسلمة الناشئة ، والكيدلها ، وتفريق صفها ، نـزل القران يفضح امـرهم .. ويكشف اهدافهم .. وخبث نواياهم .. «والذين اتخذوا مســجدا ضـرارا ، وكفرا ، وتفريقا بين المؤمنين وارصـادا لمـن حـارب الله ورسوله من قبل ». التوبة ــ ١٠٧

وتسجيلا لموقف امير المؤمنين (ع) حينما تصـدق بخاتمه وهـو راكع هبط الوحي يخلد هـذا الموقف «انما وليكم الله ورسـوله والذين آمنـوا .. الذين يقيمون الصلاة .. ويؤتون الزكاة وهم راكعـون »

واذ اعلن راس المنافقين (عبدالله بن ابي) انه سيخرج النبـي

(ص) ــ والمهاجرين معه ــ من المــدينة بعد رجوعهم من غـــزوة (بني المصطلق) سجل القرآن الكريم هذا الموقف المهين .. والخيانــة الشائنة .. «يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل.. ولله العزة ، ولرسوله ، وللمؤمنين ، ولكن المنــافقين لايعلمون» . المنافقون ــ ٨

ومن الجدير بالأشارة ان المعرفة (بأسباب النزول)ذات اهميــة بالغة في مجال الدراسات القرانية ، فهي تعاون ــ الى حد كبير ــ على ادراك مدلول الاية ومفهومها .. والحكمة الباعثة على تشريع الحكم الوارد فيها .. وتساعد على جلاء اسرارة ، وايضاح اهدافه وغاياته، كما ان الجهل بتلك الاسباب يشكل حاجزا دون الفهم الصحيح لظروف وملابسات نزول الاية .. وبالتالي العمل بخلاف مؤداها احيانا.

فنحن ــ مثلا ــ اذا ماجردنا قوله تعالى : «ان الصفا والمروة من شعائر الله .. فمن حج البيت او اعتمر فلا جناح عليه ان يطوف بهما» البقرة ــ ١٥٨ فسوف لانجد في ظاهر الفاظ الاية ما يفيد وجــوب السعي .. بل غاية ماتستفيده ــ حسب الظهور اللفظي ــ هو رفع الاثم ونفي الحرج عمن سعى بين الصفا والمروة .. وان السعي بينهما سائغ ولا ضير فيه ..هذا هو المتبادر الى الاذهان عند تجريد الاية مـــن اسباب نزولها ، اما اذا نظرنا اليها من خلال تلك الاسباب .. فسينكشف الامر ، ونعرف ان طائفة من الصحابة تأثموا من السعي بين الصفا والمروة باعتباره من الجاهلية فجاءت الاية المباركة لتزيل هذه الفكرة .. وترفع هذا الوهم .. وتؤكد ان الصفا والمروة من شعائر الله.

اذن كان الفصل بين الاية وسبب نزولها جدارا حائلاً دون ادراك الغرض من طريقة التعبير التي اتبعت في هذه الاية .. ومن ثم التورط في تفسيرها تفسيرا مقلوبا .. واعتبار السعي بين الصفا والمروة أمراً استحبابيا .. بينما هو في حقيقته امرا وجوبيا .

وفي ضوء ما تقدم ندرك سر العناية الفائقة التي حظي بها هـذا الموضوع من قبل جماعة من محدثي الصحابة والتابعين والعلماء حتى نقلوا الكثير من احاديث (اسباب النزول) ودونوا عددا من الكتب في هـذا المجال خاصة .

والان لابد من تأشير ملاحظتين :

الاولى : من الملفت ان احاديث اسباب النزول الواردة عن طريق مذهب (اهل البيت) عليهم السلام هي اقل بالقياس الى ماجاء عـن طريق المذاهب الاسلامية الاخرى .. فبينما لاتتجاوز الأولى عـدة مئات تبلغ الثانية ألافاً عدة من الأحاديث المتنوعة .

الملاحظة الثانية : من حيث العموم .. تتسم (معظم) احـاديث اسباب النزول بالتناقض ، والتهويل .. زد على ذلك افتقارها الـى السند السليم ، والصحة المطلوبة .. بل هي لاتنجو من الضعيف والمرسل ، الامر الذي دعا بعضا من المحققين الى القول بان اسبـاب النزول هذه نظرية اجتهادية .. وليست بنقلية لان كل محدث كـان يحاول ربط قضية ما بآية معينة ربطا لاحقيقة لـه في الخارج . (١٢)

---

(١٢) الطباطبائي ـ القرآن في الاسـلام ـ ص ١٢٤ .

ومن الاكيد ان جولة قصيرة في كتب التفسير تظهر اسرافازائدا عن الحد المعقول في هذا الحقل .. حيث حسب جماعة من العلماء والمؤرخين انه لابد لكل آية من سبب نزول .. وانجرافا مع هذا التصور حاولوا انطاق القرآن بمالم ينطق به .. وتحميله باكثر مما يحتمل .. ومن هنا غصت كتبهم بالاخطاء التاريخية ، والمنطقية واساطير اليهود وخرافاتهم .

ونعية لذلك الاسراف نورد ماجاء في كتاب (اسباب النزول) للواحدي نقلا عن (قتادة) الذي يزعم ان قوله تعالى : «ومن اظلم ممن منع مساجد الله ان يذكر فيها اسمه .. وسعى في خرابها..» البقره — ١١٤ نزل في (بختنصر) البابلي الذي غزا بجيشه (فلسطين) فقتل اليهود وخرب بيت المقدس .. وكان اعوانه على ذلك النصارى من الروم .. !

ان قتادة الذي ينقل عنه الواحدي يدعي ان نصارى الروم تعاونوا مع (بختنصر) على تخريب بيت المقدس .. علما ان غزوه لفلسطين حدث قبل المسيح (ع) بست مئة وثلاث وثلاثين سنة .. حيث لانصارى ولامن يحزنون .. !!

وما دمنا نتحدث في موضوع (اسباب النزول) فيحسن التذكير بان السبب الذي يستدعي نزول اية مالايعتبر مخصصا او مقيدا للمدلول القرآني العام لتلك الاية وبتعبير ثان .. ان ماينزل من ايات القرآن لسبب ما لايقتصر على ذلك السبب فيما أفاد من حكم ومدلول بل يسوغ سحبه على غيره من الاحداث ، والوقائع المماثلة في مختلف

الاماكن والازمان .

وعلى هدي ذلك نفهم مغزى قول الاصوليين «ان العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب» .. فهم يقصدون ان سبب النزول هـو مجرد مثير لنزول الوحي فحسب .. واما الحكم النازل فيسري عليه وعلى غيره من الوقائع والاحداث المشابهة .

ومن الاكيد ان جولة قصيرة في كتب التفسير تظهر اسرافا زائدا عن الحد المعقول في هذا الحقل .. حيث حسب جماعة من العلماء والمؤرخين انه لابد لكل آية من سبب نزول .. وانجرافا مع هـذا التصور حاولوا انطاق القرآن بمالم ينطق بـه .. وتحميله باكثر مما يحتمل .. ومن هنا غصت كتبهم بالاخطاء التاريخية ، والمنطقيـة واساطير اليهود وخرافاتهم .

وكعينة لذلك الاسراف نورد ماجاء في كتاب (اسباب النزول) للواحدى نقلا عن (قتادة) الـذي يزعم ان قوله تعالى : «ومن اظلم ممن منع مساجد الله ان يذكر فيها اسمه .. وسعى في خرابها ..» البقرة ـ ١١٤ نزل في (بختنصر) البابلي الذي غزا بجيشه (فلسطين) فقتل اليهود وخرب بيت المقدس .. وكان اعوانه علي ذلك النصارى من الروم .. !

ان قتادة الـذي ينقل عنه الواحدي يـدعي ان نصارى الروم تعاونوا مع (بختنصر) على تخريب بيت المقدس .. علما ان غـزوه لفلسطين حـدث قبل المسيح (ع) بست مئة وثلاث وثلاثين سـنة .. حيث لأنصارى ولامن يحزنون .. !!

وما دمنا نتحدث في موضوع (اسباب النزول) فيحسن التذكير بان السبب الذي يستدعي نزول اية مالايعتبر مخصصا او مقيـدا للمدلول القرآني العام لتلك الاية وبتعبير ثان .. ان ماينزل من ايـات القرآن لسبب ما لايقتصر على ذلك السبب فيما أفاد من حكم ومدلول بل يسوغ سحبه على غيره من الاحداث ، والوقائع المماثلة في مختلف

المكيّ والمدَني

لقد مرت الدعوة الاسلامية في فجرها المجيد بدورين رئسين : الدور المكي .. والدور المدني.

ودورها المكي يبتدىء ببعثة النبي الكريم (ص) وينتهي بمغادرته مكة مهاجرا الى يثرب وقد استوعب هذا الدور ثلاثا عشرة سنة من عمر الدعوة .

واما دورها المدني فقد كانت بدايته عند انتهاء الدور الاول ، وابتداء هذا الدور يعتبر لحظة حاسمة وفاصلة في تاريخ الدعوة الاسلامية .. حيث كان يوم الهجرة نقطة تحول عظمى .. ومنعطفا كبيرا في خط سير رسالتنا المقدسة .. حيث ودع يومها عهدا ، واستقبل عهداً جديداً .

ودع عهد التشرد ، والتخفي ، والضعف والنضال السري .. والسلبي .. واستقبل عهد القوة ، والفتح وضرب معاقل الشرك والظلام .. وامتد ذلك اليوم حتى استطاع هذا الدين ان يقف على قدميه .. ويشمخ براسه هاتفا : اني هنا .. !

ولقد كان طبيعيا ان يتماشى نزول ايات القرآن الكريم على الرسول (ص) مع سير الاحداث ، ويواكب الظروف والملابسات التي رافقت الدعوة الاسلامية بدوريها .

وهكذا كان .. وظل القرآن ينزل طيلة ثلاثة وعشرين عاما حتى اكتمل (١٣) وصارت اياته على قسمين : مكي ، ومدني .. وصار

---

(١٣) ربما ينطرح سؤال هو : لماذا لم ينزل القرآن جملة واحدة؟

لكل منهما خصائص ، وقسمات ، وملامح تميزه عن شقيقه •• وقد مثل القسم المكي ثلاثة وستين بالمئة (اي ثلثي القرآن تقريبا) ••

الجواب :

لقد كان نزول آيات القرآن الكريم متناثرة على هذه الرقعة الكبير من الزمن هو الطريقة التربوية الوحيدة الممكنة فى حقبة تتسم بميلاد دين ، وبزوغ حضارة .. ولو أن القرآن الكريم انزل جملة واحدة لتحول الى كلمة مقدسة خامدة .. ولصار مجرد وثيقة دينية لا مصدرا يبعث الحياة في الحضارة الجديدة .

كما كان لهذا الاسلوب في نزول القرآن اثر كبير في دعم موقف الرسول الكريم (ص) ــ والمسلمين معه ــ وهو يقاوم قوى الشرك والضلال .. اذ كان (ص) يشعر ان الخط مفتوح ــ دائما ــ بينه وبين السماء ، تسعفه في الوقت المناسب ، وتسنده في الموقف العصيب ، وتسدده عند اشتداد الخطوب .

والحقيقة ان افضل ما قرات في هذا الصدد قول صاحب (الظلال) «رح» : «لقد جاء هذا القرآن ليربي امة ، وينشيء مجتمعا ، ويقيم نظاما . والتربية تحتاج الى زمن .. والى تاثر وانفعال بالكلمة ، والى حركة تترجم التاثر والانفعال الى واقع .. والنفس البشرية لا تتحول تحولا كاملا شاملا بين يوم وليلة بقراءة كتاب كامل شامل للمنهج الجديد ، انما تتاثر يوما بعد يوم بطرف من هذا المنهج ، وتتدرج فى مراقيه .. رويدا رويدا ، وتعتاد على حمل تكاليفه شيئا فشيئا ، فلا تجفل منه كما تجفل لو قدم لها ضخما ثقيلا عسيرا ، وهي تنمو فى كل يوم بالوجبة المغذية فتصبح فى اليوم التالي اكثر استعدادا للانتفاع بالوجبة التالية .. واشد قابلية لها .. والتذاذا بها» .

ومثل المدني سبعا وثلاثين بالمئة (اي ثلث القرآن تقريبـــا) وهـــو مجموع ثلاث وعشرين سورة .

وواجبنا التنبيه الى ان ثمة ايات كثيرة لم تنزل لا في مكة ولا في المدينة .. وانما نزلت في امـــاكن اخرى ـ كالجحفة ، والحديبيـة ، وغدير خم ـ مما احدث اختلافا بين العلماء والمؤرخين حول تعريف كل من المكي والمدني .. وقـــد افرز هـــذا الاختلاف اتجاهـات ثـلاثـة :

الاول : يقـوم عـلى اســاس التعريف الزمني .

الاتجاه الثاني : يقوم عـلى اســاس التعريف المكاني .

الاتجاه الثالث : يقوم على اساس التعريف الشخصي الذي يقول ان المكي مـا وقع خطـابا لاهـل مكـة .. والمدني لاهـل المدينة .

ولقد جاء القرآن بمنهاج كامل شامل للحياة كلها ، وجاء فى الوقت ذاته بمنهاج للتربية يوافق الفطرة البشرية عن علم بها من خالقها . فجـاء لذلك (منجما) وفق الحاجات الحية للجماعة المسلمة ، وهي فى طريق نشأتها ونموها .. وفق استعدادها الذي ينمو يوما بعـد يوم فى ظل المنهج التربوي الالهي الدقيق. جاء ليكون منهج تربية ومنهاج حياة.. لا ليكون كتاب ثقافة يقرأ لمجرد اللذة .. او لمجرد المعرفة . جاء لينفذ حرفا حرفا ، وكلمة كلمة ، وتكليفا تكليفا . جاء لتكون اياته هي (الاوامر اليومية) التي يتلقاها المسـلمون فى حينها ليعملوا بها فور تلقيها ، كما يتلقى الجندي فى ثكنته ، أو فى الميدان (الامر اليومي) مع التأثر والفهم، والرغبة في التنفيذ ، ومع الانطبـاع والتكيف وفق ما يتلقـاه » سـيد قطب ـ فى ظلال القرآن ـ ج ٦ ـ ص ١٦٠

بيد اننا سنكتفي بذكر الاتجاه الاول .. نظرا لكونه السائد والمشهور الذي تاخذ به الغالبية العظمى من العلماء والمؤرخين .. وهو يعرف المكي بانه : ما نزل قبل الهجرة وان كان نزوله في غير مكة .. والمدني : مانزل بعد الهجرة وان كان نزوله في غير المدينة المنورة .

هذا .. وقد وضع العلماء ضوابط ومقاييس يمكن عن طريقها تمييز السور والايات المكية عن المدنية ، وذلك بمعرفة طابع وخصائص كل منهما .

والواقع ان هذه الضوابط قلما تتخلف عند التطبيق ، وقد قيل في هذا الصدد .. ان الفروق والمميزات بين السور والايات المكية والمدنية هي مايلي :

اولا ــ عندما نمعن النظر في الايات والسور المكية يتضح انها ــ بصورة عامة ــ تتميز بالقصر ، والايجاز ، وحرارة التعبير ، وسرعة الجريان ، والايقاع النغمي الواحد .. بخلاف الايات والسور المدنية التي يغلب عليها طابع الطول ، واتباع الاسلوب التشريعي ذي النفس الهادىء .

ثانيا ــ ومن السمات البارزة في الايات والسور المكية استعمال صيغة (ياايها الناس) في الخطاب .. وذلك يرتد الى ان عدد المسلمين ــ في الدور المكي ــ قليل نسبيا ، فكان من المنطقي استعمال لفظ (الناس) في الخطاب ليستوعب المشركين والمسلمين في ان .. أما الايات والسور المدنية فقد اختفت منها هذه الصيغة لتحل محلها

(يـاايها الـذين امنوا) نظرا لتحول الغالبية الى الاسلام .. اوهم في طريقهم اليه .

ثالثا ـ تخلو الايات والسور المكية مـن اية تفاصيل تشريعية بينما تمتلىء بالحديث عن الخالق والخلق .. والجنة والنار .. والدنيا والاخرة .. والموت والنشور .. وعالم الغيب والشهادة .. والملائكة والشياطين ، ومحاولات حل عقدة الشرك وتكريس عقيدة التوحيد ، ومجادلة المشركين وتسفيه احلامهم .. والسخرية من افكارهم ، كما ويكثر فيها ورود القسم جريا على عادات العرب واساليبهم في هـــذا المجال .

وعلى العكس من ذلك .. نلاحظ ان الايـات والسور المدنية تحفل بتفصيل موضوعات تعرض لقضايا جديدة .. بدأ المجتمع المسلم يعيشها ، ويحتاج اليها كـاحكام القتال ، والحرب ، والسلم ، والعقود على اختلافها .. ومسائل الزواج والطلاق والأرث .. وكثير مـــن قوانين السياسة العامة التي يفتقر اليها بناء الدولة وفق شريعة السماء .

ومن خلال الايات والسور المدنية نستطيع رصد ساحة الصراع الذي خاضه الاسلام مع اهل الكتاب ردا على شبهاتهم ، واراجيفهم التي ارادوا زرعها في الوسط المسلم كيدا وحسدا .

رابعا : لاتوجد في الايات والسور المكية اية اشارة لظـاهـرة النفاق .. او الاذن بالجهاد ، وبيان احكامه في حين تشكل هـــذه المسائل معالم ظاهرة في الايات والسور المدنية .

وبعد استعراض هـذه الخصائص ـ سواء كـانـت قطعية ام

اغلبية ـ يتبين لنا توازن الخطى الحكيمة التي كان الاسلام يخطوها في تشريعه .. فخطاب اهل المدينة لايمكن ان يـكون شبيها بخطاب اهـل مكة .. حيث ان الدور المدني من الـدعـوة المجيدة الـذي ترسخت فيه اقدامها .. وغارت جذورها .. وصلب عودها صـار يستدعي التفصيل في التشريع وصولاً .. لبناء المجتمع الجديـد .. وبالتالي فلابد من اطناب بعد ايجاز ..وتفصيل بعد اجمال .

المحكم والمتشابه

المحكم والمتشابه في القرآن الكريم من المواضيع التي دار حولها كثير من الجدل والنقاش .. فتعددت بذلك الاراء .. وتباينت المذاهب والاقوال .. بين قائل بان المحكم من الايات هو : ما لايحتمل من التأويل الاوجها واحدا .. والمتشابه ما احتمل منه اوجها عدة .

واخر يقول : بان المتشابه هو مايحتاج الى بيان والمحكم خلافه.

وثالث يذهب : الى كون الايات المتشابهات هن الحروف الهجائية المقطعة في فواتح بعض السور .

وقائل رابع يرجح : ان المحكم من الأيات هو ما كان دليله واضحاً لائحا كدلائل الوحدانية ، والقدرة ، والحكمة .. والمتشابه ما يحتاج في معرفته الى تأويل وتدبر .

وخامس يدعي : ان المحكم هو ما اريد ظاهره .. والمتشابه ما اريد به خلاف ظاهره .

وسادس ، وسابع .. الخ .

ولقد كان هذا الاختلاف سببا لظهور اراء شاذة حافلة بالمساوىء والاخطاء .. يزعم اصحابها ان ظاهرة المحكم والمتشابه تعني وجود صنفين من الايات القرآنية .. صنف الدرجة الاولى ، وصنف الدرجة الثانية .. ! ولاجرم ان هذه الاراء محض توهم .. واشتطاط.

والحقيقة ان بوسع الباحث ـ الذي ينأى بنفسه عن الدخول في معترك هذه الاراء ـ القول بان القرآن كله محكم اذا اريد

باحكامه اتقانــــه ، وبديع نظمه ، ومتانة أسلوبه ، وروعة بيانـــه وسلاسة الفاظه ، وجمال تصويره .. والى هذا المعنى اشار قولـــه تعالى : «كتاب احكمت اياته» .

كما يوسعه القول بـــان القرآن كله متشابـــه .. اذا قصـــد بتشابهه تماثل اياته في البلاغة والاعجاز ، ورشاقة التركيب ، وقـــوة المعاني ، وصعوبة المفاضلة بين اجزاءه .. وعلى هذا الامر اكد قوله تعالى : «الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها» .

وفي هذا السياق تجدر الاشارة الى ان محور الخلاف حول هذا الموضوع هـــو الاية السابعة من سورة ال عمران : «هو الذي انزله عليك الكتاب .. منه أيات محكمات هن ام الكتاب ، وأخر متشابهات .. فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تاويله .. ومايعلم تاويله الا الله ، والراسخون في العلم يقولون امنابه كل من عند ربنا .. وما يذكر الااولوا الالباب» .

ولكن مـــاجاء في هـــذه الاية الكريمة لايمكن ان يفهم بمعزل عن سبب نزوله .. بل لابد من اخذ سبب النزول بعين الاعتبار ليلقي ضوءا على عقدة هذا الموضوع .

هـــذا .. وقـــد ذكرت الروايات ان صدر سورة (ال عمران) والى بضع وثمانين اية قـــد نزل لمناسبة قـــدوم وفـــد نصارى (نجران) اليمن على الرسول الكريم (ص) .. وقـــد قـــال اعضاء الوفـــدللنبي: الست تقول عن (المسيح) انه كلمة الله وروحه ؟ محاولين استغلال هـــذا التعبير القرآني لخدمة معتقدهـــم في عيسى .. والقائـــم على

اعتباره (ع) ليس من البشر بل هو روح الله كما يفهمون هم من هـذا التعبير .. لاكما هو في التصور الاسلامي النزيه .. معرضين عن كل الايات القاطعة التي تقرر الوحدانية المطلقة لله تعالى ، والنافية عـن (واجب الـوجود) جميع الـوان الشرك ، والجسمية ، والتشبيه : «قل هو الله احد ، الله الصمد .. لم يلد ولم يولد .. ولم يكن لـه كفواً احد » .. «ليس كمثله شيء وهو السميع البصير» «الشورى–١١

وقـد اجـاب القرآن الكريم على تساؤلهم – واستغرابهم – بصدد تكون عيسى (ع) بطريقة لاتنسجم والقوانين الطبيعية المالوفة.. بان مثله كمثل ادم الذي خلق بطريقة غير مالوفة ايضا .. وان ذلـك لايستكثر على قـدرة الله تعالى ، خالق القوانين الطبيعية والقادر – بالتالي – على تغييرها او ابطالها حين يشاء سبحانه «ان مثـل عيسى عند الله كمثل ادم خلقه مـن تراب ثـم قـال له كـن فـيكون ».

وبعد هـذا البيان يغدو معروفاً لدينـا أن نزول هـذه الايـةالكريمة ما كان الا كشفا لمحاولات (وفـد نجران) الملتويـة للتلاعب بالالفاظ .. والتمسك بالنصوص القرآ ية المجازية(المصورة).. وترك النصوص التجريدية القاطعة .

والشيء الذي لايسوغ المرور عليه دون الوقـوف عنده هـو امكانية تعميم مفهوم الاية الكريمة ، واطـلاقـه مـن قيـد هـذه المناسبة .. ذلك ان الاية تصور – وبدقة – موقف كثير مـن الناس ازاء كتاب الله العزيـز .. هـذا الكتاب المتضمن لحقائـق التصور

الايماني .. ومناهج الحياة اليومية .. واصول العقيدة والشريعة جنبا الى جنب مع طائفة من امور الغيب التي لاسبيل للعقل البشري الى ادراك ما هيتها .. وحقيقتها بوسائله الخاصة . وطاقاتـه المحدودة . ولامجال له ان يعرف منها اكثر مما تعطيه وتسمح به النصوص بذاتها . لانها بطبيعتها فوق وسائل الادراك الانساني الضيق .. وقدراتـه المتواضعة .

ومن امور الغيب تلـك .. بداية الخليقة .. ونشأة عيسى .. والعرش .. والجن والملائكة .. الخ والتي جاء بها القرآن لاللعلم بتفاصيلها وجزئياتها..وانما للوقوف عند مدلولاتها القريبة..والتصديق بها لانها صادرة من الله تعالى .

وما اكثر ما نرى بعضـا من الناس يجرون وراء النصـوص التي تعرض لقضـايا الغيب .. او التاريخ البعيد ، فيمسـكون باحدها ثم يذهبون بعيدا مع التاويـلات الباردة التي من شـانها زلزلة العقيـدة ، وبلبلة الافكار ، واقحام العقل في ميدان غير ميدانه .

انهم يتركون البحث والتساؤل حول الايات الكريمة التي تتناول قوانين السياسة العامة .. والاقتصاد .. والاجتماع .. والتربيـة والادارة .. وشؤون الحياة الاخرى ، ويبددون اوقاتهم وطاقاتهم — واوقات وطاقات الناس — في اسئلة عقيمة .. ومناقشات تافهة :

— ما هو العرش..كيف يحمله ثمانية،ومن هم اولئك الثمانية..؟

— كيف ولد عيسى من غير أب .. ؟!

— ما عدد اصحاب الكهف وما لون كلبهم ..؟!!

ـ ما هو كلام الله .. هل يتكلم بجارحة ام بدونها .. وهل كلامه قديم ام مخلوق .. ؟؟؟

ـ اذا كانت الجنة كعرض السموات والارض .. اذن اين تكون النار ؟!

ـ متى تقوم الساعة .. وكيف واين ؟!

وهكذا تجدهم يطرحون ـ ما وسعهم الخيال ـ حلولا لكل قضية يختلقونها .. ثم لايلبثون حتى ينقضوا الحلول التي وضعوها ثم يبدأون البحث عن غيرها ... دوامة ليس لها اول ولا اخر

وما مثل هؤلاء الا كمثل اهل (بيزنطة) الذين تركوا كل مشاكلهم ـ وهمومهم ـ وتفرغوا لمشكلة خطيرة واحدة .. مشكلة هل الدجاجة من البيضة .. ام البيضة من الدجاجة .. ؟ ! !

ملهاة سخيفة ولا شك .. !

ولقد عبر القرآن الكريم عن هذا الصنف من الناس بأن (في قلوبهم زيغ) واضطراب .. وقلق يدفعهم الى اتباع كل آية تحتمل التأويل على عدة وجوه (ابتغاء الفتنة) .. واضلال الناس .. وتلهيتهم عن كل عمل جدي ونافع .

ومن حسن الحظ .. ان الميدان لم يترك لهؤلاء وحدهم .. ان ثمة نمطا اخر من الناس .. او لئك اللاعبثيون الذين لايقتلون الوقت في طحن الهواء ، والكتابة على الماء ، والبحث عما لاطائل تحته .

انهم يطمئنون ـ ابتداء ـ الى صدق ما ياتيهم من عند الله .. يطمئنون اليه بفطرتهم النقية ، ولا يجدون في انفسهم حرجا منه ،

ولا في عقولهم شكا به .. لانهم يدركون ان ليس كل شيء يقاس بمقاييس المساطر والمساحات .. وان من العلم ماليس للعقل فيه مجال .. وان للعقل حدودا يجب الوقوف عندها ، والاضاع في متاهات الوهم الفاسد .. والتصور المريض .

انهم لا يريدون لعقولهم ان تنتحر فى هذا المنزلق الشديد الوعورة والانحدار .. !

انهم (الراسخون في العلم) ...

الذين لاتزعزع عقولهم رياح الشك ، ولا تحلحل افكارهم اعاصير الضلال .. فيتبعون الايات المحكمات .. الايات الواضحات المتضمنة لقوانين الشريعة الاسلامية .. ومفاهيم العقيدة الاسلامية .. ومناهج الحياة الاسلامية .

انهم (الراسخون في العلم).. الذين عناهم سيدهم امير المؤمنين (ع) بقوله :

« واعلم أن الراسخين في العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب الا قرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب .. فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علما .. وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخا » . (١٤)

---

(١٤) نهج البلاغة ـ الخطبة ٨٩ .

نعم .. (انهم الراسخون في العلم).. الذين يبتعدون عن الخوض في مواضيع جهلها ليس بضائر .. وهم على يقين بان السماء لاتقاس بالشبر .. وليس بالاصبع يسبر غور البحر ..ويؤمنون تماما :

بـ « ومـا اوتيتم من العلم الا قليـلا » .

الناسخ والمنسوخ

ابدى المسلمون وغير المسلمين من مستشرقين وغيرهم عناية فائقة في دراسة علوم القرآن الكريم .. والبحث في جوانبها المتعددة.

ومن علومه الموضوعة والتي حظيت بنصيب وافر من الدراسة والتدرين (علم الناسخ والمنسوخ) الذي أفرد له العلماء والباحثون كثيرا من المؤلفات والدراسات الموسعة .

ونحن عند تناولنا لموضوع الناسخ والمنسوخ نجد ان ضرورة التبسيط تفرض علينا ــ بادى ذى بدء ــ اعطاء فكرة عامة عنه فنقول :

في الحياة الاجتماعيه المعاصره .. نلاحظ ان الدول تضع قانوناً معيناً لتنظيم الحياة الاجتماعية ، والعلاقات العامة بين مواطنيها ثم لاتلبث ــ بعد تطبيقه فترة من الزمن ــ حتى تلغيه وتبطله .. وتستبدل به قانونا اخر يتكفل تنظيما جديدا لحياة الناس وعلاقاتاتهم ، وبذا يكون القانون الثاني ناسخا وبديلا للقانون الاول .. وكما يحدث هذا ..يحدث ايضا ان لايلغى القانون بكافة مواده واجزائه .. بل يكتفى بالغاء ونسخ مادة خاصة منه .. واستبدال مادة جديدة بها مع بقاء القانون ذاته ساري المفعول كمنهج عام لتنظيم الحياة الاجتماعية .

وعلى هدي ماتقدم تجدر الاشارة الى ان هذين النمطين من النسخ «نسخ القانون للقانون» .. ونسخ مادة لمادة من القانون نفسه يمكن تصورهما في التشريع الالهي وذلك بأن تنسخ شريعة سماوية شريعة اخرى .. او مادة من شريعة سماوية مادة من تلك الشريعة» (١٥)

---

(١٥) محمد باقر الحكيم ــ بحث ــ مجلة رسالة الاسلام

ولكن من الواجب التنبه الى وجود فارق اساسي بين النسخ في التشريع الالهي والنسخ في التشريعات الوضعية ويتمثل هذا الفارق في ان النسخ بالنسبة للتشريعات الوضعية سببه جهل المشرع .. اما النسخ في التشريع الالهي فهو عائد الى التخطيط الرباني الدقيق الذي يستدعي هـذا النسخ ويستلزمه .

فمن المعلوم ان المشرع الوضعي هو انسان ـ او مجموعة مـن الناس على افضل تقدير ـ يصوغ قانونا ـ او مادة في قـانون ـ باعتقاد كماله وصوابه .. وما ان يوضع موضع التطبيق والتنفيذ ، وينزل الى ساحة العمل والتجريب .. حتى تنكشف أخطاؤه ، وتبدو نواقصه ، ويظهر انه واسع الثغرات ، كثير الفجوات .. وغير قـادر على تحقيق الاهداف التي شرع من اجلها ، وبـذا يتبين جهل المشرع الوضعي بالواقع الموضوعي الذي وضع القانون لمعالجته ، ومن ثـم يسارع الى ترقيع قوانينه بمواد جديدة ، تلافيا للنقص ، وتدار كـا للخلل ، وتوصلا الى الصواب والتكامل .. ولايمر كثير وقـت حتى يكشف التطبيق عيوبا في البدائل الجديدة .. ! وهكذا دواليك .. نسخ والغاء .. تعديل وترقيع سببه الاول والاخير جهل هـــذا الانسان ونقصه ، وقصر باعه ، وعدم احاطته بالحاجات المتعـــددة ـ والمتجددة ـ لواقع الحياة الانسانية بابعادها كافة .

وعلى عكس مـا ذكرنا .. نجد ان النسخ في التشريع الالهي ـ سواء النسخ الحاصل بين شريعة واخرى ، او في اطار شريعة بذاتها ـ لاينبع مـن جهل المشرع بـالواقـع المـوضوعي .. كـيف .. ؟

ال... ع هو الله عز وجل .. المحيط بكل شيء احاطة تامة .
ال...م بكل شيء علما شاملا .. الله الذي لاتخفى عليه خافية ،
الذي لديه الماضي ، والحاضر ، والمستقبل سواء بسواء .. ومن
... هو — سبحانه — «قد يشرع حكما باعتبار مصلحة يعلم أن لها
... منتهيا ، وحدا محدودا ، الا انه — جلت حكمته — لم يبين حده
... .. وان كان مخزونا في علمه ، فاذا انقضى أمد تلك المصلحة ،
... الحكم المنبعث عنها شرع الحكم الثاني على مقتضى المصلحة
ال...جددة» . (١٦)

وفي هذا الضوء يتوضح ان النسخ في التشريع الالهي لايكون
الا لمصلحة الحياة الآنسانية على هذه الآرض .. ولايصار اليه
الا من اجل مواكبة تطور واقع هذه الحياة ..ونموها .. وتوقانها الى
ال...سامي والكمال ، وتمشيا مع التخطيط الالهي الموضوع لسعادة
ال...رية وسموها .. وبالتالي فهو — أي النسخ — «لايقع الابعد
... سبق بوقوعه في ظروفه المحددة» . (١٧)

وانطلاقا مما تقدم نعرف ان نسخ شريعة موسى (ع) بشريعة
المسيح (ع) كان سابقا في علمه تعالى ، ولم ياتي كنتيجة لانكشاف
ال...اقع الموضوعي عن ظروف وطوارىء لم تكن بالحسبان ..
... الصحيح انه سبحانه عندما وضع شريعة (موسى) كان يعلم انها

---

(١٦) الامام البلاغي — الهدى الى دين المصطفى — ج ٢٤٧١
(١٧) محمد باقر الحكيم — المصدر السابق .

ستستنفذ اغراضها .. وتنهي وظائفها عند بلوغ البشرية شوطـــا معينا من التكامل والتطور ، ودرجة خاصة من التربية والتمحيص .. مما يحتم وضع صيغة تشريعية جديدة تلائـم هذه الدرجة من التكامل والتربية وتواكبها .

والشيء نفسه يقال بالنسبة لنسخ شريعة (المسيح) بشريعة الاسلام الخاتمة الخالدة .. وسوف ياتي مزيد من الشرح والبيان لهـــذه النقطة بعد قليل ان شاء الله تعالى .

وبعد هذه الفكرة عن موضوع النسخ باطاره العام سوفـــ نتناوله في اطار القرآن الكريم بالذات .. ويتم ذلك ضمن ثلاث نقاط :

الاولى : المعنى اللغوى والاصطلاحى للنسخ .

الثانية : اقسام النسخ وأساليبه في القرآن .

الثالثة : اتجاهات العلماء في موضوع النسخ .

وفيما يلي سنستعرض النقاط اعلاه على التوالي :

النقطة الاولى : (المعنى اللغـوي والاصطلاحي للنســخ)

النسخ في اللغة هو «الاستكتاب ، والاقتساخ .. وبمعنى النقل والتحويل ، ومنه تناسخ المواريث والـدهور ، وبمعنى الازالة ، ومنه نسخت الشمس الظل .. وقد كثر استعماله في هـــذا المعنى في ألسنة الصحابة والتابعين ، فكانوا يطلقون على المخصص والمقيد لفظ الناسخ » (١٨)

واما هو في الاصطلاح فيعني «رفع امر ثابت في الشريعـــة

---

(١٨) السيد الخوئي ـ البيان ـ ص ٢٢٧

المقدسة بازتفاع امده وزمـــانه» . (١٩) وليس من النسخ في شيء «ارتفاع الحكم بسبب ارتفاع موضوعه خارجا كارتفاع وجوب الصوم بانتهاء شهر رمضان » • (٢٠) بل النسخ الحقيقي «هو أرتفاع الحكم عن موضوعه في عالم التشريع والانشاء» . (٢١)

النقطة الثانية : (اقسام النسخ وأساليبه في القرآن)

من الممكن تصور النسخ الحاصل في القرآن على ثلاثة اقسام .

الاول ـ نسخ التلاوة والحكم •• وبعبارة اوضح هو رفع الآيه لفظا وحكما . وهذا ضرب من النسخ لم يقع في القرآن اطلاقـــا .. لان وقوعه يستدعي القول بتحريف القرآن وسقوط بعض اياته •• !

القسم الثاني ـ نسخ التلاوة دون الحكم •• وهـــذا كسابقه لاوجود له لذات السبب ايضا •

القسم الثالث ـ نسخ الحكم دون التلاوة •. ومعناه بقاء الاية لفظا ونسخها حكما ومضمونا •. وهذا النمط هو النسخ الحقيقي الواقع في القرآن الكريم •• اذ توجد عدة ايات في القران تشتمـــل على حـــكم معين لكنه منسوخ وليس له اي دور على صعيد التطبيق الفعلي •• ومن ابرز الامثلة على ذلك حكم التصدق بين يدي مناجاة الرسول الكريم (ص) الوارد فيقوله تعالى : «ياايها الذين امـــنوا اذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة •• ذلك خير لكم واطهر .• فان لم تجدوا فان الله غفور رحيم» • حيث تم نسخـــــه بقوله تعالى : «أأشفقتم ان تقدموا بين يدي نجواكم صدقات •• فاذ

---

(١٩) (٢٠) (٢١) السـيد الخوئي ـ المصدر السابق

لم تفعلوا وتاب الله عليكم فاقيموا الصلاة واتوا الزكـاة .. واطيعوا الله ورسوله والله خبير بما تعملون » .

والأن قد يطرح سؤال : ما هي اساليب نسخ الحكم الثابت في القرآن الكريم .. ؟

الجواب :

ان الحكم الثابت في القرآن ينسخ بواحد من اسلوبين

احـدهما ـ ان ينسخ «بالسنة (٢٢) المتواتـرة ، او بالاجمـاع القطعي الكاشف عن صدور النسخ من المعصوم» . (٢٣)

ثانيهما ـ ان ينسخ بآية اخرى شريطة ان تكون الناسخة «ناظرة الى الحكم المنسوخ ومبينة لرفعه» (٢٤) .. واصدق مثال لذلـك نسخ الحكم الوارد في اية النجوى .. فمن البين انها شاملة لهذيـن الشرطين معا .. فهي ناظرة الى الحكم المنسوخ ومبينة لرفعه .

النقطة الثالثة : (اتجاهات العلماء في موضوع النسخ)

الواقع ، ان متابعـة الادوار التطوريـة التي مربهـا موضوع النسخ في القرآن الكريـم سوف يعرّف الباحث ـ في نهايـة المطاف على اتجاهين مختلفين في هـذا الصـدد :

الاول ـ (اتجاه التفسير والمفسرين)

وخصيصة هذا الاتجاه ان اصحابه ـ المفسرين ـ نظروا الـى

---

(٢٢) نسخ القرآن بالسنة أمـر غير متفق عليه .. فهنـاك من يقول : «ان القرآن ينسخ بعضه بعضا ، ولا تنسخ شيئا منه السنة ، بل تنسخ السنة به ، كما تنسخ السنة بمثلها من السنة » الشيخ المفيد /اوائل المقـالات / ص ١٥٠ .

(٢٣) (٢٤) السـيد الخوئي ـ البيلن ـ ص ٢٨٦ .

النسخ من زاوية معناه اللغوي •• ومـن ثـم صيروا مفهوم النسخ فضفاضاً •• واسعاً بحيث شمل ـ في رأيهم ـ التخصيص ، والتقييد، والاستثناء ، وترك العمل بالحكم لانتهاء امده •• او لتغير ظرفــه، او تبدل موضوعه •

ومن اظهر الأمثلة التي تساق ـ هنا مما يدخل تحت عنوان ترك العمل بالحكم لتغير ظرفـه ، او تبدل موضوعه آية السيف «وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة» • التوبة ـ ٣٦ ومنسوخاتها التي هي بمثابة تعليمات للدعوة السلمية ، والمسلحة حسب مقتضيـات الظروف والمواقف •

ومما يـدخل تحت عنوان الاستثناء والتخصيص قوله تعالى : «والعصر ان الانسان لفي خسر .. الا الـذيـن امنـوا وعملوا الصالحات » •• حيث قالوا : «الاستثناء ناسخ لمـا قبله •• ! (٢٥)

ولعل نظرة واحدة على منهج المفسرين تكفي لمعرفة أن تبنيهـم لمفهوم النسخ من الزاوية اللغوية أدى الى اسرافهم في هذا الميدان بشكل ملحوظ .• «فتوهموا وقوع التنافي بين كثير من الايـات •• والتزموا لاجله بان الاية المتاخرة ناسخة لحكم الايـة المتقدمة ، حتى ان جملة منهم جعلوا من التنافي ما اذا كانت احدى الايتين قرينـة عرفية على بيان المراد من الأية الاخرى •• كالخاص بالنسبة للعام •• وكالمقيد بالاضافة الى المطلق ، والتزموا بالنسخ في هـذه المـوارد وما يشبهها • ومنشأ هـذا قلة التدبر ، او التسامح في اطـلاق لفظ

---

(٢٥) الفضلي ـ رسالة الاسـلام ـ ع ٥ ـ ٦ ـ س ٤

النسخ بمناسبة معناه اللغوي » . (٢٦)

الاتجـــاه الثاني : (اتجـــاه اصول الفقـــه والاصوليين)

ويتميز باستخدام كلمـــة النسخ كمصطلح (علمي) بعيـد عن التوسع الذي تفرضه طبيعة المعنى اللغوي للكلمة ، وبالتالي فقد صار النسخ في مفهوم الاصوليين هو «تبديل حـكم بأخر لانتهاء أمـــد الحـكم السابق » (٢٧)

ومن هذا المنطلق ابعد الاصوليون (حشدا) غفيرا مـن أيـــات النسخ ـ المعتبرة عند المفسرين ـ الى غير النسخ في ميـدان البحث الاصولي .

ولاشك ان اعتماد منهج الاصوليين في تحديـــد مفهوم النسخ يجعل النسخ الحقيقي في القرآن الكريم اقـل مـن القليل .. بحيث يغدو معظم مايدعى نسخه عاجزا عـن الوقـوف امام اسلوب التحقيق وفق هـذا المنهج .

ولقد غربل السيد (الخوئي)ـدام ظله ـ عددا كبيرا من الايـــات التي قيل بنسـخها ، وناقشـها بعمق ودقـة فلم يصـمد فى الميـدان منها..سوى آية النجوى التي توفرت فيها شروط النسخ التي يراها.

وكذا فعل (السيوطي) الذي حصر النسخ في احدى وعشريـن اية على خلاف في بعضها .. ثـم استبعد منها ايتين اثنتين .. ذكر ان الأصح فيهما أنهما محكمتان فصارت الآيـات المنسوخـة في رأيـه

---

(٢٦) السـيد الخـوئي ـ البيان ص ٣٠٦ .

(٢٧) الفضلي ـ المصـدر السـابق .

لا يزيد على تسع عشرة اية ، وقد ذكر الدكتور (الصالح) ان تدقيق النظر في الأيات التي قال السيوطي بنسخها يوضح أن الجدير منها بمفهوم النسخ الحقيقي لايتعدى العشرة فقط • (٢٨)

وتأسيساً على ماذكر يكون من الاهميـــة بمكان التمييز بين مفهومي النسخ عند المفسرين من جهة والاصوليين من جهة ثانية وعدم الخلط بينهما من اجل ادراك حقيقة النسخ بصورة بعيدة عن الغموض •

وبعد هذا القدر من البيان لموضوع الناسخ والمنسوخ •• لابد من وقفة استعراض قضية ذات اهمية قصوى خلاصتها مايلي :

لقد عرفنا ان الشرائع السماوية ينسخ بعضها بعضا في سبيل مواكبة واقع الحياة الانسانية وتطلعه الى التصاعد والكمال •• وتموين هذا الواقع بالتشريعات اللازمة والملائمة لكل مرحلة من مراحل تطوره وارتقائه •

ونتيجة لذلك تنطرح تساؤلات :

لماذا الثبات على الشريعة الاسلامية اذن •• ؟

هل توقف نمو وتطور واقع الحياة الانسانية عند الدرجة التي ظهرت فيها هذه الشريعة •• ؟!

ولاشك ان دعوى توقف النمو والتطور يدحضها واقع الحياة في عصرنا الراهن عنه في عصر الدعوة ••• واختلاف مشاكل انسان اليوم •• وهمومه •• وطموحاته •• ووسائل

(٢٨) د • صبحي الصالح ـ مباحث في علوم القرآن ـ ص ٢٧٤ •

عشه عنها لدى الانسان الذي عاصر ظهور الشريعة الاسلامية .. اذن كيف نوفق بين مانلمسه من تحرك واقع الحياة وقفزاته السريعة ــ والمستمرة ــ والقول بقدرة الشريعة الاسلامية بصيغها التقليدية الثابتة ــ على تلبية حاجات الواقع في كل زمان ومكان .. ومهما تغيرت الظروف والاحوال ، فهل يعني ذلك اكثر من محاولة تجميد الواقع عند نقطة معينة .. وتحنيطه في (توابيت) محددة ليس في وسعه مغادرتها بحال .

هذا مجمل للتساؤلات التي تثور في الأذهان بسبب الخوض في موضوع (الناسخ والمنسوخ) .. وهي تساؤلات ترتدي ثوب الأهمية البالغة جراء ارتباطها الوثيق بعدد من المسائل الفكرية الدقيقة . وعلى اساس من ذلك فهي تتطلب اجابة واضحة بعيدة عن التعقيد والابهام .

ومن اجل اضاءة الطريق الى اجابة من هذا النوع فسوف نطرحها ضمن ملاحظتين .. تتكفل الاولى كشف حلقات الترابط القائم بين رسالات السماء كا طروحة الهية (واحدة) انزلت لغرض تنظيم حياة البشرية على الارض .

اما الملاحظة الثانية .. فتعنى باعطاء فكرة موجزة عن الاسلوب الذي يمكن احكام الشريعة الاسلامية من تلبية الحاجات المتباينة لواقع الحياة في مختلف الاماكن والازمان .

التخطيط الآلهي للبشرية

منذ اول وهلة يبدو ان التساؤل عن اسباب عدم نسخ والغاء احكام الشريعة الاسلامية يستبطن جهلا بواحدة من اهم ثوابت الفكر الاسلامي التي تعد قطبا يجتمع حوله حشد كبير من المسائل الفكرية المتنوعة .. تلك هي فكرة التخطيط الالهي للبشرية .

وفيما يلي سنسلط الضوء على هذا التساؤل من خلال جواب موجز فنقول :

من يتفكر يعلم .. ان الله عز وجل لم يخلق البشرية عبثا ، ولم يتركها هملا ، فهو — سبحانه — لم يكن ليفيض عليها الوجود ثم يدعها لشأنها تتخبط في الحياة دونما رعاية وتوجيه ، او ارشاد وتدبير .. لأن ذلك لايتفق مع لطفه بعباده ، وعلمه بحاجتهم الى مدد وافتقارهم الى عونه وعنايته .

ولقد كان من معالم لطف الله بالبشرية ، ورأفته بها ان زودها بالعقل والاختيار ... لكنه — تعالى — علم انها لن تصل الى الحق

ولن تدرك العدل ، ولن يحل التناقض (٢٩) في حياتها بالعقل والاختيار وحدهما .. وهي لن تنجو من الضلال ، وتهتدي الى الرشد ، وتحقق مصالحها العليا بغير ان يعلمها خالقها ويوجهها .. ويمدها بالعون لتدرك ولتفهم .

وهكذا كان ..

فمن اجل تحقيق مصالحها .. والتوصل الى كمالها المنشود المتمثل باخلاص العبادة لله وحده ، والتوجه اليه وحده .. والتلقي منه وحده .. والخضوع لارادته وحدها — من اجل ذلك — وضع الله سبحانه اطروحة نظام عادل وكامل لقيادة البشرية ، وتنظيم شؤونها في الحياة .

وهذه الاطروحة الالهية((هي الحل الوحيد لذلك التناقض الشامل في حياة الانسان .. والتي تشكل الشرط الاساسي لتنمية ظاهرة

---

(٢٩) المقصود من التناقض هنا..هو ذلك التعارض الذي يحسه الفرد بين مصالحه ومصالح الجماعة . وهذا التعارض ظاهرة طبيعية مستحكمة فى كيان الانسان..ولا يمكن التغلب عليها الا بتحويل مصالح المجتمع وكل المصالح الكبرى التي تتجاوز الخط القصير لحياة الانسان الى مصالح للفرد على خطه الطويل ، ويتم ذلك عن طريق اشعاره بالامتداد بعد الموت ، والانتقال الى ساحة العدل والجزاء التي يحشر الناس فيها ليروا اعمالهم .. وليس بالامكان ان نخلق في الانسان شعورا — حقيقيا مطمئنا — بالحياة بعد الموت الا بتحيكم نظام الاطروحة الالهية العادلة فى مجالات حياته كافة ، وتربيته وفق مناهجها .. ورؤيتها الصادرة من وحي السماء

الاختيار وتطويرها في خدمة المصالح الحقيقية للانسان » (٣٠)
وقد توخت الاطروحة الالهية العادلة تحقيق ثلاثة اهداف :

الاول — البلوغ بالبشرية الى مستوى عالٍ في العقيدة الالهية . مستوى التجريد الخالص ، والتوحيد المنقى ، والعبادة (٣١) الحقيقية (الواعية) لله وحده .. ذلك المستوى الذي يعطي افضل النتائج، واعظم الثمار على صعيد ايجاد الفرد الكامل ، والمجتمع الفاضل .

الهدف الثاني — دفع البشرية الى مرحلة الايمان بفكرة الدعوة الالهية العالمية الواحدة .. البعيدة عن روح القبيلة وعصبياتها ، وعواطف القومية العنصرية وتشنجاتها .

الهدف الثالث — تطبيق النظام العادل الكامل في ظل الدولة العالمية الواحدة .. التي تحكم أرض الله باحكام الله ، وتقود عباد الله في طريق الله .. بعدالة تامة ، ومساواة مطلقة .. بعيداً عن التحيز والانحراف .. والتى تؤهل الانسان لتسلم مفاتيح الطبيعة المسخرة لخدمته ، وتمكنه من طاقتها تمكيناً كاملاً .

---

(٣٠) للسيد الصدر الفتاوى الواضحة — ص ٥٧ — ج .

(٣١) بالمفهوم الاوسع للعبادة . . فالعبادة في الاسلام ليست محصورة فى اعمال الخشوع الخالص ، كالصلاة والصيام مثلا .. بل هي تتناول حياة الانسان العملية ايضاً .. ومن هنا يدعو الاسلام الناس الي ان يمارسوا اعمالهم — كلها حتي التي تبدو تافهة — على انها عبادات واعية من اجل الله تعالى .. فكل نشاط يصدره الانسان منسجماً مع مفاهيم الاسلام وتشريعاته هو عبادة ، سواء كان نشاطا مشروطا باستحضار نية القربة الى الله تعالى . . او لم تشترط فيه نية القربة .

ولم يكن تطبيق هذه الاطروحة امرا ميسورا لانه يستلزم توفر شرطين اساسيين :

الشرط الاول – ان تفهم البشرية الاطروحة العادلة ، وتدرك ابعادها بصورة واضحة .. وتؤمن بكونها الضامن الوحيد لاسعادها والأخذ بيدها في دروب الخير والسلام عن طريق خلق الظروف الموضوعية التي تمكن الانسان من التحرك في المسار الصحيح .

الشرط الثاني – ان تصل البشرية الى مستوى من الاخلاص ، يجعلها مستعدة للتضحية والبذل في سبيل تطبيق هذه الاطروحة الالهية.

ولقد كانت البشرية – ابان طفولتها الفكرية – قاصرة عن فهم الاطروحة .. وادراك ما تنطوي عليه من خير ، وعدل ، وسعادة .. وبالتالي فهي لاتملك الاستعداد للتضحية في سبيل شيء لاتفهمه ولاتدرك مغزاه ومنافعه .

ولغرض معالجة هذا الوضع .. وتخطي هذا الحائل ، والتغلب على هذا القصور .. رسمت خطة ، ووضع منهاج لتربية البشرية ، وتنمية ادراكها ، وتصعيد ارادتها .

وقد اقتضت هذه التربية – لاسباب تتصل بالتكوين النفسي للانسان – ان تكون خلال احقاب طويلة الامد .. ووفق برنامج يتسم بالتدرج البطيء ، والممارسة الهادئة ، لتؤتي ثماراً ناضجة .. ونتائج غير مبتسرة .

وتنفيذا للخطة ..

عُهد الى الانبياء – في موكبهم الطويل – ممارسة عملية التربية

بنظام المراحل المتعددة •• وطريقة الخطوة خطوة •

وتظافرت جهود الانبياء (ع) على أداء المهمة التي ا نيطت بهم •• وكانت ذات شقين :

الاول ـ تبليغ البشرية (٣٢) بحتمية تطبيق اطروحة النظام الالهي العادل •• في يوم يسود فيه العدل والرخاء ، ويعم الامن والاستقرار وينحدر الجور والطغيان .. «وعد الله الذين امنوا منكم .. وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم • وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى •• لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا •• يعبدونني لايشركون بي شيئاً » ـ النور / ٥٥

الشق الثاني ـ تربية البشرية ، وتوجيهها ، والارتفاع بها ، لتكون بمستوى الاطروحة العادلة •• ومن ثم لتكون على اتم الاستعداد للتضحية فى سبيل تطبيقها •• وتحقيق اهدافها ، واستثمار مكاسبها العظيمة •

ولقد كانت مهمتهم (ع) صعبة شاقة •• ومسؤوليتهم مجهدة مضنية ••! لكنهم كانوا بمستوى المهمة •• وعلى قدر المسؤولية فادى كل واحد منهم جزءا من عملية التربية عبر مراحل تاريخ البشرية المديد • (٣٣)

وكانت تربية البشرية على الشرط الاول (فهم الاطروحة)اسهل بكثير من تربيتها على الشرط الثاني (الاستعداد للتضحية من أجل تطبيقها) •• ومن هنا فقد آتت التربية على الشرط الاول ثمارها في

---

(٣٢) باسلوب يختلف من نبي الى آخر من حيث التفصيل والاجمال ، والتوضيح والابهام .

(٣٣) على ضوء هذا التصور يتبين ان الانبياء (ع) وجود واحد..

وقت مبكر نسبيا .

واما الشرط الثاني فقد تـأخر ..!

وهذا أمر طبيعي .. اذ الوعي النظري ليس مسألة صعبة .. فهو لايحتاج ـ غالباً ـ الى اكثر مـن توجيه ، وقابلية ذهنية زائـداً رغبة .. لكن الصعوبة ـ كل الصعوبة ـ تكمن في التطبيق العملي الذي لايوجد ـ في اكثر الاحيان ـ الاحيث يحقق المنافع الذاتية .. ويتوائم والدوافع النفسية .

وتنبغي الاشارة الى أننا لانـدعي أن الانبياء (ع) قـد أخفقوا في تربية البشرية على الشرط الثاني (الاخلاص والتضحية) ووفقـوا لتربيتها على الشرط الاول .. فالواقع غير ذلك .. لانهم (ع) زاولوا مهمة تـربية البشريـة على الشرطين معا .. فتربيتها على الشرط الاول تمثلت فيما بلّغوا من أحكام ، وتشريعات .. ومانشروا مـن تعاليم ، ومفاهيم ، وتصورات .

وشخصية واحدة .. واصـحاب منهج فى الحيـاة واحد .. ودعـاة رسالة واحدة . انهم شـخصية واحدة تنوعت ظروفها وجهـودها .. انهم ذلك الانسان الرباني المستقيم .. ذلك الضمير الواحد الذى جاش بالوعي ، والصدق ، والايمان .

انهـم قلب واحـد مشرق بنور الوعي .. وعقـل واحـد تفتح بفهـم القوانين الالهية ..وهمة واحدة توجهت الى هـداية الانسـان وصناعة تاريخه .. !

انهم قلب واحد كبير .. توزع فى عدة صدور على تاريخ البشرية الطويل .

وتربيتها على الشرط الثاني تمثلت فيما قدموه من تضحيات ، ودماء ، وشهداء ..تضحيات كانت خير درس لاشعار البشرية بعظمة الاطروحة الالهية ، وسموها .. واستحقاقها لكل هذا البذل .. ولكل هذا العطاء .

ولكن نتائج ومعطيات التربية على الشرط الاول كانت اسرع ظهورا ـ وتمخضا ـ من نتائج التربية على الشرط الثاني .. لان تربية البشرية والارتفاع بها الى المستوى العقلي والثقافي الملائم لفهم الاطروحة العادلة ايسر من تربيتها على الاخلاص ، والاحساس بالمسؤولية تجاه تطبيق هذه الاطروحة .. والسبب هو ان تحقيق الشرط الاول يتعلق بالجوانب الفكرية والثقافية ، ولذا فهو لايواجه من الصعوبات والمعوقات كتلك التي تواجهها التربية على الشرط الثاني والمتعلقه بالجوانب النفسية ، والوجدانية للانسان .. ومن ثم فلاغرو في ان يحتاج تحقق الشرط الثاني وقتاً أطول بكثير من الوقت الذي يستلزمه تحقق الشرط الاول .

ولاغرو ـ أيضاً ـ ان تكون البشرية ابان اول نضجها الفكري والثقافي لفهم الاطروحة غير مكتملة النضج من الجوانب النفسية والوجدانية لتتمع بالاخلاص للاطروحة الالهية .. والاستعداد للتضحية والعطاء من اجل تحقيقها .. وتطبيق مفاهيمها .. واحكامها .

ومضت قافلة البشرية على الطريق .. يحدوها الانبياء (ع) بالتربية والتوجيه ـ كل في دوره المرسوم ـ وقد انزل الله ـ سبحانه ـ عليهم ابعاضا وتفاريق من الاطروحة العادلة تتناسب ومراحل التطور الفكرى للبشرية عبر تسلقها لسلم الارتقاء والتكامل .

وبعد لأي ومشقة •• وعناء ووصب ، بلغت البشريـة مستوى من الفكر والادراك اهلها (لفهم الاطروحـة واستيعابها) وبذلك توفر الشرط الاول •• وعندها بعث خاتم النبيين (ص) •• وأنزلت أطروحة النظام العادل الكامل متمثلة بالشريعة الاسلامية المقدسـة .

وبتوفر الشرط الاول : شرط الفهم .. بقي الشرط الثاني (شرط الاستعداد للتضحية في سبيل التطبيق).. وبدأ النبى يعمل لتربيـة البشرية من اجل تحقيق هذا الشرط .. ولكنه (ص) مضى الى ربه دون أن يتسنى لـه تحقيقـه بفعل عوامـل التكوين النفسي للانسـان . وجاء بعد رحيله دور الائمة المعصومين الاثني عشر (ع) في تربيـة البشرية وتصعيدها لانجاز هذا الشرط الحيوي الذي لايمكن تطبيق اطروحة السماء ــ وانزالها الى ساحة التنفيذ العملي ــ من دونه ابدا.

ومضى أحد عشر اماما والبشرية تواصل سيرها الوئيد ، المحسوب نحو تحقق شرط (الاخلاص والتضحية) .

وجاء دور الامام الثاني عشر •••

وكان مقتضى التخطيط الالهي (ادخاره مغيبا) الى اليوم الموعود الذي يتم فيه شرط التطبيق بتفاعل ــ وتدخل ــ عوامل عـديـدة ومتنوعة ، حيث يـكون (ع) مهيئا لقيادة البشرية في طريق التطبيق والتنفيذ .

والبشرية بصورة عامة والامة الاسلامية ــ بصورة خاصة ــ لمـا تزل تعيش في ظلال التربية على الشرط الثاني حتى يـومنا هـذا .. وتتم تربيتها من خلال مرورها بظروف اختبار وتمحيص صعبة .. وجراء

تعرضها لألوان قاسية من المحن والويلات .. واحساسها بـافـلاس مختلف النظم ، والنظريات ، والتيارات الفكرية الوضعية ، وعجزها عن اصلاح واقع الحياة اصلاحا حقيقيا .. الامر الذي يجعلهاتجـد في البحث عن وسيلة للخلاص وطريقا للاستقرار .

وعندما تبلغ البشرية ـ والامة الاسلامية ـ درجة معينة مـن التهيؤ والتطلع ، ومرحلـة حاسمة مـن الاستعداد والترقب .. تبرز الاطروحـة الالهية (كزورق نجاة) ينقذها مـن المفاسد والانحراف . وعندها ينجز وعـد الله .. ويتحقق نصره باقامـة الحكم العـادل ، والمجتمع البشري الصالح في كنف الدولة العالمية الواحدة بقيـادة واشراف الامام المهدي المنتظر (ع) وتعيش البشرية في بحبوحة مـن العدل والرخاء .. وتتذوق طعم السلم والامان .. وينتهي عهـد الطواغيت الى الابـد .

وعودا عـلى بـدء نقـول :

لامكان ـ اذن ـ للتساؤل عن اسباب عـدم نسخ الشريعـة الاسلامية بشريعة سماوية جديدة جريا مع قاعدة نسخ الشرايع السماوية السابقة .. وذلك أن نسخ تلك الشرايع كـان تمشياً مـع التخطيط الالهي في هذا الشأن .. مضافاً الى انها لم تكن تمثل ـ بحد ذاتها ـ الصيغة النهائية للاطروحة العادلة ، ولذا كان من الضروري نسخهـا وصولا الى مرحلـة انـزال الاطروحـة الالهية بصيغتها الأخيرة .

ولقد شاء الله تعالى ان تكون الشريعة الاسلامية هي الصيغـة

النهائية الكاملة .. « الوريثة لكل ما يعبر عنه تاريخ النبوات والرسالات .. والمشتملة على ما في تلك النبوات والرسالات من قيم ثابتة ، دون ما لابسها من قيم مرحلية .. وبهذا كانت الرسالة المهيمنة القادرة على الاستمرار مع الزمن .. وكل ما يحمل من عوامل التطور والتجديد » . (٣٣)

«وانزلنا اليك الكتاب بالحق .. مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه » المائدة ـ ٤٨

وارتكازا على ما تقدم .. تكون الدعوة الى نسخ الشريعة الاسلامية ـ وهى الصيغة النهائية للاطروحة الالهية العادلة ـ بمثابة دعوة الى نسف المخطط الالهى الموضوع لتنظيم حياة البشرية .. وتكميلها .. وتصعيدها ، وهي ـ بالتالي ـ دعوة الى اهدار جميع الجهود الجبارة .. والتضحيات الجسيمة التى قدمها انبياء الله ، ودعاته الكرام .. وكل الخيرين ، والصالحين ، والشهداء على هذا المدى المتطاول من تاريخ الانسان فوق الارض (٣٤) .

---

(٣٣) السيد الصدر ، الفتاوى الواضحة ـ ج ١ ـ ص ٧٦

(٣٤) للتوسع فى موضوع التخطيط الالهي تراجع المصادر التالية: موسوعة الامام المهدي ـ الحجة السيد محمد الصدر . بحث حول المهدي ـ السيد الصدر دام ظله . فى انتظار الامام ـ عبد الهادي الفضلي. فى ظلال القرآن ـ سيد قطب. وبعض المصادر الاخرى.

الملاحظة الثانية :

خلود الشريعة الأسلامية ومرونتها

بعد الفراغ من الحديث فيما يتعلق بالملاحظة الاولى ، والذي تعرفنا فيه على اسباب عدم نسخ الشريعة الاسلامية كغيرها من الشرائع السماوية السابقة .. فان السؤال الذي يطل علينا هو :

كيف يتسنى للشريعة الاسلامية ان تؤدي دورا حقيقيا فاعلا في معالجة واقع الحياة الانسانية ، وتلبية متطلبات التطور المدني .. والتقدم الحضاري في مسيرة البشرية وعلى مختلف مستوياتها الفكرية، والثقافية .. وتنوع علاقاتها الاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية ،وغيرها .. ؟ !

ولدى الاجابة على هذا السؤال يحسن التفات النظر الى حقيقتين مهمتين :

أولا هما هي : ان الشريعة الاسلامية تمثل التعبير الاخير للاطروحة الالهية كما مر علينا قبل لحظات .

وهذه الحقيقة تفرض علينا النظر اليها بوصفها قانونا ربانيا .. ونظاما سماويا موحى بـه من عند الله تعالى .. خالق الانسان ومربيه، العالم بكل ما يصلحه وما يفسده في جميع ادواره واطواره .. وهي لم تنزل لتنظيم شؤون مجتمع معين ، في بيئة محددة .. في مرحلة زمنية خاصة .. انما هي النظام الالهي العادل الكامل الموهوب للانسان

من خالق الانسان .. رحمة بالانسان .

هذه هي الحقيقة الاولى .

واما الحقيقة الثانية . فتتلخص في ان ما يطرأ على مظاهر الحياة الانسانية من تغير تارة يمس الطبيعة المادية التي تحيط بالانسان واخرى يمس النظم الاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية لهذه الحياة .

والتغيرات من الصنف الاول تظهر واضحة في الانتصارات الكبرى التي احرزها الانسان على الطبيعة .. والتي اتاحت له تقدما عظيما في اساليب انتفاعه بامكاناتها الهائلة التي خلقها الله لخدمة الانسان وتحسين شروط حياته العامة

والشريعة الاسلامية لاتقف موقف العداء من أي تقدم يحرزه الانسان في تذليل قوى الطبيعة وتسخيرها لخيره وسعادته .. بل هي تشجع ــ بصورة مطلقة ــ هذا التقدم .. وتباركه .. وتدعو المسلمين الى المشاركة في دفع عجلته ، والاستمتاع بنتائجه .. واجتناء ثماره .

واما التغييرات التي يحدثها الانسان في النظم الاجتماعية والاقتصادية .. والنظريات والافكار التي يبتدعها عن الكون والحياة ونحو ذلك من المسائل .. فان الشريعة الاسلامية لاتمتص منها سوى

المطابق لاحكامها ، ومفاهيمها (٣٥) .. وماعدا ذلك فمصيره الرفض الحاسم .. والاستبعاد القاطع .

فهذه الشريعة ــ مثلا ــ لايمكن ان تستقبل وجهة النظر القائلة

---

(٣٥) «نعني بالمفهوم (الاسلامي) كل رأي للاسلام ، وتصور اسلامي يفسر واقعا كونيا ، او تشريعيا ، او اجتماعيا . فالعقيدة بصلة الكون بالله تعالى وارتباطه به تعبير عن مفهوم معين للاسلام عن الكون .. ونستطيع انتزاع هذا المفهوم من نصوص عدة منها قوله تعالى :

«ولله ما فى السموات وما فى الارض وكان الله بكل شيء محيطا» .

والعقيدة بان المجتمع البشري مر بمرحلة فطرة وغريزة ، قبل ان يصل الى المرحلة التي يسود فيها العقل والتأمل تعبر عن مفهوم اسلامي عن المجتمع .. ويمكن استمداد هذا المفهوم من قوله تعالى : «كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين » . وقوله تعالى : « كان الناس امة واحدة فاختلفوا » .

والعقيدة بأن الملكية ليست حقا ذاتيا ، وانما هي (استخلاف) تعكس التصور الاسلامي الخاص لتشريع معين .. وهو الملكية للمال ، فان المال فى المفهوم الاسلامي كله مال الله .. والله يستخلف الافراد ــ احيانا ــ للقيام بشأن المال ويعبر عن هذا الاستخلاف تشريعيا بالملكية .

فالمفاهيم اذن وجهات نظر ، وتصورات اسلامية فى تفسير الكون وظواهره ، او المجتمع وعلاقاته ، او اي حكم من الاحكام المشترعة » . السيد الصدر ــ اقتصادنا ــ ج ٢ ــ ص ٣٥٩ ــ بتصرف .

بانبثاق الانسان من اصل حيواني .. ولا وجهة النظر التي تفسر حركة التاريخ .. وحياة الانسان بكافة او جهها بعامل واحد .. كالاقتصاد ، او الجنس ، او القوة ، او غيرها .

ولكنها ـ أي الشريعة الاسلامية ـ لاتجد مبررا للحؤول بين العمال وتجميع انفسهم داخل هيئات ونقابات تنظم شؤونهم وتدافع عن حقوقهم ومصالحهم المشروعة .

ومنشأ الاختلاف بين موقفي الشريعة هو ان وجهات النظر تلك تتعارض ـ بحدة ـ مع أوضح مفاهيمها وتصوراتها الصميمة .. في حين أن مسألة التنظيم النقابي للعمال تلتقي وتنسجم مع مبدأ حرية العامل في كسبه وعمله .. وحقه في ممارسة كل الوسائل النظيفة الكفيلة برفع مستواه المعيشي .. وتدعيم قدرته على نيل نتائج أتعابه كاملة غير منقوصة .

صحيح ان العمل النقابي لم يكن معروفا فى عصر النبوة الزاهر .. حيث لم تبلغ الحياة هذه الدرجة من التعقيد والتشابك . الا ان ذلك لا يعد مانعا من قبوله مادام مبدأ حرية العمل مبدأ اساسيا فى الشريعة الاسلامية . .

وبعد ان أضأنا الطريق بهاتين الحقيقتين دعنا ننطلق الى الاجابة على السؤال السابق من زوايا ثلاث عسى ان يتوضح ـ اكثر فاكثر ـ الاسلوب الذي يحقق للشريعة الاسلامية القدرة على (تجهيز) واقع الحياة بالتشريعات اللازمة لمسايرة ظروف تطوره في مختلف المستويات والاحوال .

والزوايا الثلاث هي :

اولا ـ زاوية (الاحكام الخمسة) .

ثانيا ـ زاوية (الاحكام الثابتة والمفاهيم المتغيرة) .

ثالثا ـ زواية (منطقة الفراغ) .

الزاوية الاولى : (الاحكام الخمسة) .

كيما نفهم جانبا من اسلوب مواجهة الشريعة الاسلامية للواقع المتنامي فمن الضروري الاعلان عن انها صنفت جميع اعمال ونشاطات الانسان سواء الشخصية او الاجتماعية ، او الدولية .. بل وحتى الاعمال الذهنية منها كالعمليات العقلية والنفسية ـ صنفتها ـ الى خمسة اصناف :

اولا ـ صنف الأعمال والنشاطات الضرورية لبناء الحياة واقامتها بشكلها الذي يريده الله تعالى ويرضاه .. وقد حكمت الشريعة على كل عمل ونشاط من هذا اللون (بالوجوب) واعتبرت تاركه ـ فردا او مجتمعا ـ عاصيا لله تعالى ، ومنحرفاً عن سبيله .

ثانيا ـ صنف الاعمال والنشاطات التي تلحق اضرارا بالفرد او المجتمع ، وتؤدي الى افساده وتاخيره ، وعرقلة مسيرته نحو الكمال والترقي .. وكل عمل من هذا النمط محكوم (بالحرمة) من وجهة نظر الشريعة الاسلامية .. وهي تضع مرتكبه ـ فردا او مجتمعا ـ في صف العصاة والمنحرفين .

ثالثا ـ صنف الاعمال والنشاطات التي يتحقق من خلالها

مستوى افضل لحياة الناس على الصعيدين الفردي والاجتماعي ، ولكن الحد المرضي (لله تعالى) في الحياة لايتوقف عليها .. وقد اعتبرتها الشريعة المقدسة اعمالا (مستحبة) وحثت على القيام بها ، ولكنها لم تفرضها ، ولم تعتبر المتقاعس عنها عاصيا او منحرفا .

رابعا ـ صنف الاعمال والنشاطات ذات الطابع الشبيه بالمحرمات من بعض وجوهها .. وقد شجعت الشريعة الاسلامية على تركها ، والابتعاد عنها .. ولكنها لم تمنع من ارتكابها ، ولم تنظر الى فاعلها بمنظار العصاة والمنحرفين ، ومثل هذه الاعمال والنشاطات محكوم (بالكراهة)

خامسا ـ صنف الاعمال والنشاطات التى لايؤثر فعلها او تركها على اقامة الحياة بصورتها المرضية لله تعالى .. وليس لها دور في ايجاد المستوى الارفع ، او تخفيض الحد المرضي لحياة الناس افرادا وجماعات .. وقد درجت الشريعة على اعتبار مثل هذه الاعمال (مباحة) لاتترتب على فعلها ـ او تركها ـ معصية او نحرافا .

ولاريب ان القاء نظرة على التصنيف المذكور تبين لنا ان جميع ممارسات الانسان ـ سواء كان يمتطي جملا او صاروخا ـ ونشاطاته باختلاف ضروبها وألوانها..لابد أن تلتقي ، وتتطابق مع واحد من هذه الاحكام الخمسة .. وعلى هذا الاساس فهي اما ان تكون واجبة ، او محرمة ، او مستحبة ، او مكروهة ، او مباحة .

وبملاحظة ما تقدم يغدو واضحا تماما ان الشريعة الاسلامية قادرة على طبع ـ او عدم طبع ـ سلوك ونشاط الانسان بطابعها

مهما اختلف الواقع الموضوعي الذي يمارس فيه ذلك السلوك والنشاط

وبذا ندرك جيدا ان تغير الظروف الموضوعية ، وتبدل المستويات الفكرية ، والثقافية ، والسياسية للانسان لايؤثر مطلقا على امكانية الشريعة في ممارسة دورها بكفاءة عالية ، ونجاح كبير لتنظيم حياة الانسان على هذا الكوكب .

فا لاعتقاد بالله ورسله ـ مثلا ـ والحياة الأخرة ، والصلاة ، والصيام ، واداء الزكاة ، والدعوة الى تطبيق الحكم الاسلامي (الحقيقي) بين الناس ..وبر الوالدين ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر .. ومعاملة الناس بالحسنى ، وعدم الركون الى الظالمين .. ان هذه الاعمال والنشاطات ـ وغيرها مما اوجبتها الشريعة ـ واجبة على الانسان ـ فرداً او مجتمعاً ـ سواء كان الانتاج في مرحلة المغزل اليدوي .. او مرحلة المنسج الكهربائي .

وانكار وجود الله . . والشرك به عز وجل ، والقتل ، والزنا ، والربا ، وشرب الخمرة .. ومنح الولاء للمنحرفين ، وعقوق الوالدين ، ودعم الواقع اللا اسلامي .. والتصورات الجنسية الفاسدة ، والاضرار بمصالح المجتمع ، والغش ، والتبرج ، والتجسس ان هذه الاعمال والنشاطات ـ وغيرها مما حرمته الشريعة ـ حرام بقطع النظر عن كونها صدرت من فرد ـ او مجتمع ـ يعيش في القرن الاول .. او القرن العشرين .. او السبعين .. ! !

الزاوية الثانية :
(الاحكـام الثابتة والمفاهيم المتغيرة) .

ثمة من يحسب ان الشريعة الاسلامية لاتتضمن الاصيغا تشريعية (متكلسة) .. يشكل وجودها معوقا لمسيرة الحياة الانسانية نحـو التقدم والصعود .

ولاريب ان هذه الفكرة تجانب الصواب تماما .. اذ لاوجـود لمثل هذه الصيغ في الشريعة الاسلامية المقدسة الابالقدر الذي تفرضه الحاجات الثابتة في حياة الانسان .. وهي الحاجات ذات الطبيعـة المستقرة التي لاتزيدها حركة التطور الاجتماعي والمـادي الاثباتا .. واستقرارا .

ان هذا اللون من الحاجات ــ فقط ــ هو الذي عالجته الشريعة بقوانين ثابتة ، وصيغ محـددة لأن معالجة الحاجات الثابتة بحـلول واساليب متغيرة تبعا لظروف العيش ووسائـل الحياة لايؤدي الا الى الفوضى والارتباك .

امـا فيما عدا مجال الحاجات الثابتة فان الشريعة تعمل بمقتضى قاعدة (الحكم الثابت والمفهوم المتغير) . وماعلينا الان الاتناول عدد من الامثلة التي توضح هذه القاعدة .. وتبين الكيفية التي تؤدي بها دورها الكبير .

المثـال الاول : (مفهـوم الفقـر)

من المعروف ان معالجة الفقر في المجتمع الاسلامي هدف مركزي من اهداف تشريع جملة من الضرائب ــ كالزكاة والخمس والواجبات المـالية الاخرى ــ على الافراد الموسرين من المجتمع .. ومن المعروف ــ ايضا ــ ان احكام ، وقـواعـد ، وتفاصيل هـذه الضرائب ثـابتة

لاتتغير ولاتتبدل بتغير ظروف الانتاج ، وتبـدل وسائـل العيش .

ولكن صفة الثبات هذه لم تفقد هذا التشريع مرونته وقـدرته على اغناء الواقع في مختلف المراحل ، وذلك بفضل تغير (مفهـــوم الفقر) .. فالشريعة الاسلامية لم تحدد للفقر مفهوما مطلقا ، ومضمونا متحجرا في كل المــواقف والاحــوال .

فهي لم تقل ــ مثلا ــ ان الفقر هــو العجز عن الاشباع البسيط للحاجات الاساسية .. بـل اعتبرت الفقر هــو : عـدم اللحاق فـي المعيشة بمستوى معيشة الناس .. وبذا اتاحت لمدلوله (العملي) فرصة الاتساع والتمدد بما يتلائـم وارتفاع مستوى المعيشة .

وطبقاً لهذا المفهوم المتغير يغدو كـل فرد انخفض مستوى عيشـــه عن المستوى المتعارف الذي لاضيق فيه ولاحرج فقيرا وفق مقياس الشريعة الاسلامية للفقر .. «فاذا اعتاد الناس ــ كمثال ــ على استقلال كل عائلة بدار نتيجة لارتفاع العمران في البلاد .. اصبح عدم حصـول عائلة على دار مستقلة لونا من الفقر ، بينما لـم يكن فقرا حينما لـم تكن البلاد قـد وصلت هــذا المستوى من اليسر والرخاء» . (٣٦)

وهكذا نجد ان بامكان الاحكام الثابتة لتشريعات الضرائـب المـالية معالجة مشكلة الفقر في مختلف مراحـل ومستويـات تطور الجوانب الاجتماعية والمـادية لحياة الناس .. وذلك بفضل العمـل بقاعـدة (الحكم الثابت والمفهوم المتغير) .

---

(٣٦) السـيد الصـدر ــ اقتصـادنا ج ــ ص ٦٣٢ .

والحجاب مفهوم أخر تتجلى من خلاله قاعدة (الحكم الثابت .. والمفهوم المتغير) .. فلا يخفى ان الشريعة الاسلامية حكمت بوجوب ستر المراة لجسدها عدا الوجه والكفين .. صونا لنظافة المجتمع من الرذائل والمفاسد الاخلاقية التي يسببها التبرج والانفلات ، وحفظا لكرامة المراة من ان تذبح في طريق الشهوات المحمومة ، والنزوات الهابطة .

والشريعة من (اجل المراة) اوجبت عليها عدم التبرج وابداء الزينة الا في حدود معقولة وطبيعية . (٣٧)

وهذا الوجوب حكم ثابت ـ يتعلق بموضوع خاص هو الحجاب ـ لايتغير بتغير وتنوع وسائل العيش واختلاف درجات التقدم الفكري والثقافي .

ولكننا لوتساءلنا : هل وضعت الشريعة الاسلامية صورة

---

(٣٧) من المعلوم انه من غير الواجب على المرأة ستر وجهها وكفيها عن الرجل الاجنبي .. وتبعا لذلك يطرح السؤال التالي : هل يسوغ للمرأة تزيين وجهها ، وتعديل ملامحه باضافة الرتوش والاصباغ الصناعية .. ام السائغ ابرازه بصورته الطبيعية لا غير .. ؟

والسؤال بعينه يطرح بالنسبة للكفين : فهل يسمح للمرأة بابدائهما مزينين بالخواتم والحلقات وما شابه من ادوات الزينة والتجميل عرفا .. ؟ ولقد اجاب السيد الصدر (دام ظله) على هذين السؤالين بما يلي : =

خـاصة .. واسلوبا محددا لتطبيق هـذا الحكـم .. هـل قالت : يجب على المـراة ان ترتدي لباسا ساترا بهذه الموصفات اوتلك ..؟؟ فان الجواب سيكون : كلا .. انها لـم تفعل شيئا من ذلك .. ولـم تعين نموذجا خاصا للستر لايسمح بتجاوزه وتخطيه .. انماتركت حرية تحديد وسيلة الحجاب واسلوبه الى المكلف بالذات . (٣٨)

= «لا باس بالزينـة (السـلبية) من قبيل ازالة الشـعر ونحو ذلك ، واما الزينة (الايجابية) من قبيل وضع المساحيق الملونة وامثالها فـلا يجوز ابراز الوجه والكفين معهـا .. نعم بالنسـبة للكفين يعفى عـن لبس الخاتم ، وكذلك يعفى عن الكحل بالنسـبة للزينة الايجابية » .

السـيد الصـدر ـ اجـابة خطية خاصـة .

(٣٨) وفى هـذا الضوء يبدو ان وسـيلة الحجـاب التقليديـة (العبـاءة) ـ وان كانت تمثل نمطا كفوًا من انماط الحجـاب ـ ليست هي الاطروحة الشرعية . وبتعبير ادق ليسـت هي الاطروحة الوحيـدة للحجـاب الاسـلامي .. بل ان كل لبـاس سـاتر يصـح اعتبـاره حجـابا اسـلاميا اذا ما اشـتمل على الشروط العـامة ، والتي يمكن تلخيصـها فى ثلاثة :

اولا ـ ان يغطي سـائر الجسـد عـدا الوجه والكفين .

ثانيا ـ ان يكـون مـن السمك والتماسـك بحيث يسـتر لون البشرة تماما .. اما اللباس (الشفاف) الذي لا يسـتر اللون فانه لا يؤدي وظيفة الحجـاب ولا يمثله اطلاقا .

ثالثا ـ ان يكـون واسـعا ، فضـفاضا .. اما لو كان ضـيقا (مخصرا) بصـورة يبرز معهـا تقاطيع الجسد ، ويحاكي قسـماته ،

ويرسم ملامحه وأبعاده ، فهو ليس حجابا اسلاميا بحال .

وبودي الاشارة الى انه ليس المهم التزام المراة (المسلمة) بهذه الاطروحة او تلك .. فهذه مسالة شكلية ؛ وثانوية بحتة .. المهم .. التزامها بجوهر الحجاب الاسلامي .. واعني بالضبط ان تتفاعل معه بحرارة ، وتؤمن به بصدق ، وتحس احساسا عميقا بضرورة تطبيقه بجدية واعتزاز .. !

وبهذا الاحساس ، والايمان ، والتفاعل سوف تطبق المراة (المسلمة) حكم الحجاب تطبيقا كاملا وسليما .. اما اذا فقدت هذه العناصر فانها لن تستطيع تطبيقه ــ على الوجه الحقيقي الامثل ــ وان كانت ملفعة بالسواد من قرنها الى قدميها .

ولا ريب ان هذه العناصر لن تتوهج في نفسها الا من خلال فهمها لفلسفة الحجاب الاسلامي .. وادراكها الواعي لوظيفته السامية في تقدم المجتمع وبنائه .. وتزكيته .. وتطهيره .

وصفوة القول : ان حجاب المراة المسلمة ــ بصرف النظر عن وسيلته ــ يحتاج في تطبيقه الى (لهب) ايماني يستعر في وجدانها .. واشعاع عقائدي ينبعث من داخل نفسها فتندفع بزخمه لتنفذ الحكم بكلّ دقة واخلاص .

والواقع ان ذلك لا يتبلور الا بتربية المراة المسلمة ــ منذ الصغر ــ وتوجيهها ، وتطعيمها بالثقافة الاسلامية الواعية ، الهادفة .

ولما كانت المرأة المسلمة هي المسؤولة عن تطبيق هذا الحكم فقد اعطتها الشريعة حرية تطبيقه بالشكل الذي تنسجم معه نفسيا وعمليا .. وبصورة لاتعوق ممارستها لحياتها الطبيعية وفق المنظور الاسلامي لتلك الممارسة .

وبناء على ما تقدم يتجلى بوضوح انه مادام التطبيق معبرا عن الحكم ، وغير مخالف له من قريب او بعيد فانه تطبيق تقبله الشريعة ، وتحتضنه ، وتدعمه .

ويتجلى ــ كذلك ــ ان العمل وفق قاعدة (ثبات الحكم وتغير المفهوم) بالنسبة لموضوع الستر الشرعي للمراة .. منح هذا الحكم قابلية الدوام والاستمرار .. وموائمة مختلف مراحل التطور وظروفه .

ومن المؤكد ان ادراك هذه القاعدة يكشف ان الحجاب الاسلامي لم ــ ولن ــ يحد من قدرة المراة على الحركة والعمل بما يتلائم وفطرتها الطبيعية الخاصة .. ووظيفتها الاساسية في الحياة ضمن الاطار الصحيح للشروط الشرعية .. ويوضح أن الزعقات التي تنطلق من هنا وهناك مطالبة (بانقاذ .. !) المراة من الحجاب الاسلامي ، وتحريرها من قيوده المؤلمة ، وشروطه الثقيلة بدعوى تعويقه لمسيرتها .. واهدراه لانسانيتها .. ان هذه الزعقات مصدرها الشيطان وأدواته..!

المثـال الثالث ـ (مفهـوم العلم) .

والحكم بوجوب طلب العلم اللازم لادارة دواليب الحياة هـو الاخر حكم ثابت في الشريعة الاسلامية ، ولكنها لـم تخصص نـوع العلم المفروض طلبه .. او تقصره على علم بعينه .. بـل كـل علـم يفتقر اليه المجتمع ، ويتوقف عليه نموها ، وتطوره ، وتقدمـه امـرت بطلبه وحثت على اكتسابه . هذا من جهة ..

واما من جهة اخرى فان الشريعة لـم تحدد مفهوما معينا لأي عـلم مـن العلوم بصورة تجعل وجوب طلبه محصورا في دائرة ذلك المفهوم لايتعداهـا .

ولوا خذنا علم الطب ــ من باب المثال ــ فسوف نرى ان الشريعة الاسلامية حكمت بوجوب تعلم الطب (كفاية) (٣٩) على المسلمين ..

---

(٣٩) الـواجب فى بعض تقسـيماته ـ ينقسـم الى (عيني) و (كفائي) . والواجب العيني هـو : كل فعل فرضـته الشريعة عـلى كل فـرد مـن المكـلفين دون اسـتثناء ، والذي لا يـرتفع وجـوبه باداء الغير .. وذلك كالصـوم والصـلاة اليومية وما شابه .

ويقـابله الواجب الكفائي وهـو : كل فعـل فرضـت الشريعـة عـلى جميع المكلفين الاتيـان به . ولكن اتيـانه مـن بعضـهم يؤدي الى سـقوطه عن الاخـرين .. امـا اذا اهملـوه جميعـا ، فانهـم يسـتحقـون العقـاب جميعـا .

والامثلة على الواجب الكفائي عـديدة منهـا تجهيز الميت والصلاة عليه ، ومنهـا انقـاذ المشرف على الهـلاك كالغـريق ونحـوه ، ومنها الامـر بالمعـروف والنهي عن المنكـر ، ومنهـا محـاولة البلـوغ الى

وفي نفس الوقت لـم تقرر مفهوما خاصا للطب الذي امرت بتعلمه .. انما جعلته مفهوما (مطاطا) غير مقيد بنطاق او اخر ، ولذا فهي لاتقبل من طالب علم الطب الذي يعيش في القرن العشرين ان يكتفي بتعلـــم واتقان المعارف الطبية التي كـان يعرفهـا اطباء عصر النبوة .. بــل لابدله ـ ليكون ممتثلا لحكم الله في هذا المضمارـ ان يتناول احدث المعلومات ، ويقف على اخر التطورات والخبرات الطبية المتوفرة في عصره .

واستناداً الى مامر ذكره يمكن القول بأن عدم اضفاء طابع بعينه على مفهوم الطب .. وعدم حصره في اطـار خـاص جعله مفهومـاً متغيراً .. متحركـاً ، وصير تطبيق الحكـم الـوارد بشـأنـه قابلا للتبدل من مرحلة الى اخرى مسايرة لاحدث واخر انجازات العلم في حقل المعارف الطبية .

المثال الرابع ـ (مفهـوم القـوة)

وهاك حكماً ثابتاً من أحكام الشريعة المقدســة تتبدى فيه هــذه القاعدة على اروع صورة .. هو حكم (وجوب اعداد القوة) .

القوة التي تمكن المسلمين من صد المعتدين والطامعين .. وازاحة قوى الكفر والانحراف التي تقف سدا دون ابلاغ الدعوة الى الناس..

مرتبة عالية من العلم باحكام الاسلام ومبادئه العامة .. والقدرة على استنباط الاحكام الشرعية من ادلتها وهو ما يسمى (بالاجتهاد) ، ومنها اتقان الحرف وتعلم المهن والصناعات ، واكتساب العلوم التي يتوقف عليها النظام العام للمجتمع .

وتمنع تكريس حكم الله في ارضه .. واخضاع الحياة بما فيها ، ومن فيها لمناهجه وشريعته .

ولكن ما هي القوة التي يجب على المسلمين اعدادها وتحضيرها..

هـا هنا سلكت الشريعة الاسلامية نفس المسلك ، وسارت على ذات القاعدة (ثبات الحكم وتغير المفهوم) .

فوجوب اعداد القوة حكم ثابت .. ومفهوم القوة هو المتحرك والمتغير تمشيا مع اسلوب : لكل مرحلة ما يناسبها .. ففي مرحلـة السيوف والرماح .. الواجب اعداد سيف ورمح ، وفي مرحلـة البندقية والمـدفع .. بندقية ومـدفع .. وهكـذا كلما تغير المفهوم صاحبه تغير بالتطبيق .. حتى صـارت حـدود التكليف الاسلامي باعداد القوة حدودا مفتوحة .. لانها حدود القدرة والاستطاعـة الى اقصاهـا .

وسعياً وراء الاختصار نكتفي بهـذه الامثلـة الاربعة لكشف الدور الذي تلعبه قاعدة (ثبات الحكم وتغير المفهوم) في اسباغ روح المعاصرة على احكـام الشريعة الاسلامية المقدسـة في مختلف اطوار حياة البشرية .

الزاوية الثالثة :

(منطقة الفراغ)

عندما يكون هدفنـا ابراز قدرة الشريعة الاسلامية على اغنـاء الواقع الموضوعي المتغير للحياة بالتشريعات اللازمة لتنظيمه ، وتنميته،

ودفعه نحو الافضل .. عندما يكون هدفنا ذلك فلايسوغ التغافل عن واحدة من أبرز سمات هذه الشريعة ، التي أكسبتها امكانية مواجهة الواقع المتغير ـ وبصفة مستمرة ـ بوسائل مكافئة وفق أساليب متحركة مرنة ، لكنها متينة واضحة .

وتلك السمة هي : منطقة الفراغ .

ومنطقة الفراغ هي المساحات المفتوحة الموجودة في الهيكل العام للشريعة الاسلامية الخالدة .. والتي انيطت وظيفة ملئها بولاة الامور (الحقيقيين) في الدولة الاسلامية (الحقيقية) العادلة .. تبعا لما يرونه من مصلحة الامة في المواقف المختلفة ، والظروف المتباينة .

ولعل سائلا يقول : من هو ولي الامر الذي منح هذه الصلاحيات الواسعة فى مليء منطقة الفراغ .. ؟

الجواب :

انه المعصوم (ع) فى زمن حضوره . وقد قام النبي الكريم (ص) بوظيفة مليء (منطقة الفراغ) فى عصر النبوة الزاهر بوصفه ولي الامر في المجتمع المسلم الفتي الذي انشاه فى المدينة المنورة .. ولو قمنا بمراجعة لوقائع تاريخ عصر النبوة فسوف نعرف كيف مارس (ص) دوره (كرئيس اعلى للدولة) في ملء منطقة الفراغ بما يتناسب والحاجات القائمة وقتذاك . (٤٠)

هذا فى زمن حضور المعصوم ..

---

(٤٠) لم يستطع احد من الأئمة المعصومين (ع) ـ سوى امير المؤمنين (ع) ـ ممارسة عملية مليء منطقة الفراغ لعدم استلامهم السلطة الزمنية نتيجة للظروف المعروفة .

اما فى غيبته (ع) فان ولي الامـر هو : المجتهـد (٤١) المطلق ـ الذي تتـوفر فيـه سـائر الشروط الشرعية ـ الاعلم فى الشريعة ، والاعـرف ، والاقدر على تطبيق احكامها فى مواردها .. مع فهم للحياة وشؤونها بالقـدر الذي تتطلبه معرفة احكامهـا من الادلة .. مضـافا الى كونه كفوءا لذلك من الناحيتين الدينية والواقعية معـا (٤٢) .

ومما تجدر الاشارة اليه ان لمنطقة الفراغ فـي الشريعة حدوداً وضوابطا .. وحدودها لاتتعدى الاعمال والنشاطات المباحة .

وتوضيح ذلك هو انه ليس لولي الامر ان يأمـر بأي عمل ورد النص القطعي بتحريمه .. كالمعاملات الربوية .. او الزواج من المحارم مثـلا ، ولا أن يحرم ماثبت وجوبـه شـرعا كأداء الزكاة والخمس ، والدعوة الى طريق الله وغيرها من الفرائض الاخرى .. وبذا يتبيـن ان تحريم ماأحل الله تعالى ، وتحليل ماحرم غير داخل فـي دائرة منطقة الفـراغ اطلاقـا .

فصلاحيات ولي الامر محصورة في نطاق الاعمال والنشـاطات المباحة .. فكل عمل أو نشاط من هذا القبيل اذا منع عنـه ولي الأمر يصبح حراماً ، واذا امـر بـه يصبح واجباً .

وفي سبيل زيادة التوضيح نطرح النماذج التالية :

---

(٤١) الاجتهـاد : هـو القدرة العلميـة عـلى استخراج الحكم الشرعي من دليله المقـرر . الفتـاوي الواضحة ـ ص ٢٠ .

او : هـو مرتبه عالية من العلم باحكام الاسـلام ومبادئه العـامة عن ادلتهـا الخاصة . (رسـالتنا ـ ص ـ٥٢)

(٤٢) تراجع الفتـاوى الواضحة للسـيد الصـدر دام ظله

الاول ــ (تصرف المـالك فيما يملك)

مـــن المعروف انه في الوقت الذي اعطت الشريعة الاسلاميــة للمالك حق التصرف فيما يملك منحت ولي الامر ــ ضمن اطار منطقة الفرع ــ حق منعه من ذلك التصرف اذا ما استوجب تصرفه اضرارا بالغير ٠٠ ومـــن ذات المنطلق حـــق لولي الأمر الزام اصحاب الاموال بتشغيل رؤوس اموالهم فيما يعود بالنفع العام ٠٠ اذا قـــدر ان تجميدها يضر المباحـــة ٠٠ كـــل عمل او نشاط من هذا القبيل اذا منع عنه ولي الأمر بمصلحة الامة بنحو أو آخر ٠

النموذج الثاني ــ (الملكيـــات الخاصـــة)

لقـــد احترمت الشريعة الاسلامية الملكية الخاصة ٠٠ وحمتها ٠٠ وحرمت التجاوز والتعدي عليها بأي شكل من الاشكال ٠٠ ولكنها ــ مع كل ذلك ــ خولت ولي الامر ضمن اطار منطقة الفراغ ــ صلاحية الغاء الملكيات الخاصة كبيرة او صغيرة ٠٠ والسيطرة عليها بالقدر الذي يراه ضروريا لمصلحة الامـــة ٠

النموذج الثالث ــ (التخصـــص العلمي او المهني ومجالاته)

لايخفى ان من المعالم الرئيسية في الشريعة اباحتها للفرد ــ اصلا ــ اختيـــار الفرع العلمي او المهني الذي يرغب التخصص فيه ٠٠ فله ان يكون طبيبا ، او مهندسا ، او ميكانكيا او اديبا او غير ذلك ٠ ولكنها منحت ولي الامر حق فرض نوع معين من التخصص اذا وجد ان المصلحة العليا للأمة وتقدمها تقتضي سد الحاجة من المتخصصين في هذا المجال او ذاك ٠٠ وعليه فلو امر بسد النقص في ملاك الاختصاصيين الزراعيين ــ مثلا ــ لحاجة الوطن الاسلامي اليهم فان التخصص فـــي المجالات

الاخرى غير الضرورية يصبح حراما ، وان كان مباحا في اصل التشريع •• ولاترتفع الحرمة الا اذا أشبعت الحاجة الى الاختصاصيين في المجال الزراعي •

النموذج الرابع – (تحديد الاسعار)

في حدود منطقة الفراغ •• يسوغ لولي الامر التدخل لضبط الاسعار وتحديدها اذا شكل تدخله عنصرا ضروريا للحفاظ على موازين العدالة الاجتماعية التي يتبناها الاسلام ويدعمها •• اما في غير حالات الضرورة فالاصل هو ان من حق المالك البيع باي سعر احب ، والشريعة (لاتمنع منعا عاما عن بيع المالك للسلعة بسعر مجحف) • (٤٣)

النموذج الخامس : (احياء الارض واستثمار الموارد العامة)

ان الاصل التشريعي (النظري) هو عدم تحديد المساحات التي يجوز للفرد احياؤها من الارض القابلة للزراعة •• او تعيين الكميات التي يسوغ له استثمارها واستخراجها من الموارد الطبيعية العامة كأخشاب الغابات •• او معادن المناجم وغيرها •

كل ذلك في حالات التطبيق الاعتيادية التي يتساوى فيها جميع الافراد من جهة القدرة على الاحياء والأستثمار ، اما اذا صار بوسع فرد واحد احياء مساحات شاسعة من الارض ، او استثمار كميات هائلة من الموارد الطبيعية بسبب امتلاكه للوسائل – من اموال ، وعمال ، وأدوات – التي تتيح له امكانية تصعيد ارباحه بصورة تؤدي الى الاضرار

(٤٣) السيد الصدر – اقتصادنا – ص ٦٤٣

بمصالح الأخرين، وتتعارض مع مبدأ تكافؤ الفرص لسائر افراد المجتمع ..
اما اذا صار الامر كذلك فان لولي الامر ـ ضمن منطقة الفراغ ـ كل الحق في عدم تمكين مثل هذا الفرد من استغلال الاباحة الشرعية في موضوع احياء الارض واستثمار الموارد الطبيعية على حساب القطاعات العريضة لجماهير الامـة .

واحسب ان النماذج المتقدمة قـد ألقت بعض الضوء على كيفيه ملىء (منطقة الفراغ) من قبل ولي الامر في الدولة الاسلامية العادلة .. وبينت ان تغير الموضـوع حسب تطور الحياة المادية .. وتغير الظروف المعاشية في مختلف أبعادها ـ والتي تقتضي دوما عمليه استنباط جديدة لمواجهة متطلبات هـذا التبدل والتطور ـ قد عولج مـن قبل الشريعة المقدسة عن طريق المرونة التشريعية ـ او بالاصح الاداة الاجتهادية ـ التي تلعب دوراً أيجابيا معطاءا في هذا الميدان .

وبعد .. فعسى ان نكون وفقنا لابراز كفاءة الشريعة الاسلامية ـ باسـلوب ميسر ـ فى ادارة عجلة الحياة الانسـانية فى مختلف مراحلها دونما فرز او استثناء .



القرآن والترجمة

اجمع الفقهاء على وجوب قراءة شيء من القرآن الكريم في كل صلاة .. ووجوب ان تكون القراءة باللغة العربية ، وان يكون آداء الحروف واخراجها من مخارجها على النحو اللازم في لغة العرب بشكل تكون هيئة الكلمة موافقة للاسلوب العربي تماما .

ولعلك تسأل هل يعني عدم جواز قراءة القرآن - حال الصلاة - بغير العربية ، عدم جواز ترجمته الى لغات اخرى ..؟

الجواب :

لاشك ان الله تعالى بعث محمدا (ص) لهداية وقيادة الناس كافة .. وعززه بهذا القرآن معجزة السماء الخالدة المشتمل على النظام الالهي الضامن لسعادة البشرية وخيرها وكمالها .

وقد شاءت حكمته - تعالى - ان ينزل قرآنه الكريم علي نبيه (ص) بلسان قومه .. الا ان مفاهيمه ، وهدايته ، ونظمه شاملة للناس اجمعين .. لافرق بين العرب وغيرهم ، ومن ثم وجب العمل ، وبذل الجهد - بكل الوسائل - لايصال مفاهيم القرآن وهدايته الى كل انسان .. لينال سعادته وخيره ، وتقام عليه الحجة ((ليهلك من هلك عن بينة .. ويحى من حي عن بينة)) . الانفال - ٤٢

ومعه .. تكون ترجمة القرآن الى شتى اللغات ، ومختلف اللهجات .. من الواجبات (الحقيقية) على كل المسلمين . باعتبارها النافذة التي يطل منها القرآن الكريم على الامم والشعوب غير العربية.

ومما تقدم نستطيع معرفة مدى ضرورة وأهمية ترجمة القرآن ..

سيما اذا اخذنا بنظر الاعتبار ان الرسالة الاسلامية رسالة عالمية وضعها الله سبحانه كأطروحة نظام عادل وكامل للبشرية كافــة •

ومن المهم الانتباه الى عــدم امكانية ترجمة القرآن الكريم مــن اللغة العربية الى غيرها بصورة تماثل الاصل العربي من جهــة الاحتفاظ بالمفردات ، التراكيب ، والنسق ، والاسلوب والتأثير البلاغي المعجز الذي يتميز بــه النص العربي بالذات •• ذلك ان هذا اللون مــن الترجمة مستحيل مــن الناحيتين العملية والشــرعية •• !

فمن الناحية العملية •• أكدت التجارب استحالة ترجمة اي كلام ــ حتى كلام البشر ــ مــن لغة الى اخرى بحيث يظل محتفظا بجميع مافي الاصل من معان •• وملامــح •• وجمال وروعــة ، اذ ان لكل لغــة مقوماتها وخصائصها التي لاتشاركها فيهــا غيرها مــن اللغات ، ولعل من ابرز خصائص اللغة العربية ــ لغة القرآن ــ التي لاتحاكيها فيهــا لغة اخرى •• بلاغتها العالية المتسمة بالايجاز الشديد •

ولانقاش في ان ذروة البلاغة والايجاز في اللغة العربية هي في النص القرآني الذي لاتحيط به لغة اخرى ، ولاتأتي بمثله •

هذا من الناحية العملية •• اما مــن الناحية الشرعية فالاستحالة قائمة على اساس ان هذا النمط من الترجمة يعني الاتيان بقرآن جديد بلغة غير عربية •• ! وهذا عمل لن يقدر عليه سوى الله عزوجل القائل: ((قــل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن •• لايأتــون بمثله ولــو كان بعضهم لبعض ظهيرا)) • الاسراء ــ ٨٨

ترجمة معاني القرآن

اذن ماهو السبيل الى ترجمة القرآن .. ؟

الجواب : ان السبيل هو ترجمة معاني القرآن .. اي نقل مدلول الآيات القرآنية من اللغة العربية الى لغة اخرى ويعتمد ذلـــك على استيعاب المترجم للمعنى القرآني استيعاباً تاماً ومن ثم القيام بنقله الى اللغة المترجم اليها .

ومهما يكن من أمر .. فلا مهرب من التنوية بأن ترجمة القرآن ليست عمــلا هينــا .. بل هو ينطوي على اخطار ومحاذير جمــة .. اذ ربما تنتهي الترجمة الى عكس ما يراد منها .. فتغدو مصدراساءةالى كتاب الله العزيز .. ! وابرز دليـــل على مشروعية هــذا الخوف .. ان كثيرا من اولئك الذين تصدوا لهذا العمل وقعوا في أخطاء فاحشة ، وكمثال على ذلك مارتكبته مستشرقة انجليزية حاولت ان تترجم بعض آيات القرآن الكريم .. ونظرا لتعلمها اللغة العربية في اوساط العراق فانها ترجمة (اللباس) في قوله تعالى (وجعلنا الليل لباسا) بـ (البنطلون حيث ان اللهجة الدارجة هناك تعبر عن السروال باللباس .. ! (٤٤)

وليس بوسعنا تقدير حجم الضرر الذي الحقته هذه الترجمة المشوهه بالقرآن الكريم .. فماذا سيكون انطباع القاريء الانجليزي عن القرآن وهو يقرأ معنى الآية الكريمة هكذا (الله جعل الليل بنطلونا) ؟؟!

---

(٤٤) عبد الرحيم محمد علي ــ القرآن والترجمة ــ ص ١١

وتفاديا لمثل هذه الاخطاء والمزالق في ترجمة القرآن الكريم • يجب ان تتوفر في المترجم شروط عدة منها : •

اولا : ـ ان يكون محيطا احاطة كافية باللغة العربية •• ومدركا للظهور اللفظي الذي تفهمه العرب الفصحى •

ثانيا : ـ ان يكون ملما باللغة التي يترجم اليها .. عارفا باصولها وقواعدها •

ثالثا : ـ ان يعتمد على ماجاء عن المعصوم (ع) في تفسير القرآن الكريم وعلى حكم العقل الفطري السليم •

رابعاً : ـ ان يتمتع المترجم بحس أخلاقي (اسلامي) مرهف يمنعه من اختيار اللفظة النابية التي تخدش الشعور •• وتجرح العفاف •• ولاتنسجم مع الذوق والفضيلة .. وهذا الشرط ـ الرابع ـ يدعونا الى التشديد على وجوب ان يكون المترجم «مسلما» ليكون أميناً على تحري الالفاظ التي لاتشين دينه في اللغة المترجم اليها .

ومما لاجدال فيه ان الحس الاخلاقي عند المسلم هو غيره عند غيره .. وافضل برهان على ذلك ترجمة الايه الكريمة : «قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ، ولم أك بغياً» • مريم ـ ٢٠فقد ترجم المبشر (جورج سال) كلمة (بغي) بكلمة انجليزية تقابل عندنا بالعربية كلمة (عاهرة) كما وضع على غير ما يرتضيه الذوق الاسلامي كلمة (رجل) بدلا من كلمة (بشر) في الآية الكريمة .. بينما نجد مترجما مسلما هو العلامة الهندي (مولانا محمد علي)يابى

عليه شعوره الاخلاقي الذي رباه الاسلام اختيار كلمة (عاهرة) فينتقي في ترجمته كلمة (غير عفيفة) ويترك كلمة (بشر) كما هي في النص الكريم .

وعندما ترجم (مولانا محمد علي) الاية الكريمة : «ووجدك عائلا فاغنى» .. انتخب لكلمة (اغنى) جملة (جعلك متحررا من الحاجة) .. ولكن (جورج سال) ترجم نفس الكلمة بجملة (جعلك ذامال) والفارق بين الترجمتين شاسع وواضح .. وهو يؤكد البون الكبير بين الذوقين الاسلامي واللااسلامي .

والبحث في موضوع (ترجمة القرآن) يحتم علينا الاشارة الى ان اول ترجمة للقرآن الكريم كانت الى اللغة السريانية في عهد (هشام بن عبد الملك) .. كما وتوجد في متحف لندن مجموعة خطية وهبها (ادوار كاريوري) تحتوي على ترجمة قديمة للقرآن منذ حوالي (٦٩٠م) وهي تشتمل على ايات كاملة ليست من القرآن .. !

ولكن محاولات الترجمة القرآنية لم تنشط الامع بدايات عصر النهضة الاوربية .. حيث واجه القرآن حملة محمومة من قبل الفكر الغربي قادتها ونظمتها الكنيسة الاوربية فتهافت العلماء ، والقسس ، والمستشرقون على ترجمة القرآن ترجمة محرفة فاسدة ، بقصد تفنيده وابطال حقائقه ، والنيل من عظمته .. وطبعه بطابع من التشويه والتحريف .

كما عني علماء الاستشراق ــ الظالعون بركاب الكنيسة الغربيةــ

بتاليف دراسات ضافية في تفسيره ، وتاريخه ، والرد عليه .

وقد نشرت مجلة (الهلال) في عدد خاص لها تقريرا جاء فيه ان ترجمات القرآن الكريم بلغت خمسا وتسعين ترجمة تمثل مختلف لغات العالم :

المانية : (١٣) ترجمة بدأت عام ١٦١٦

الفرنسية : (٧) ترجمات بدأت عام ١٦٤٧

الانجليزية : (١٠) ترجمات بدأت عام ١٦٤٩

ثم اليونانية - واللاتينية - والبولونية - والايطالية - والبرتغالية والاسبانية - والصربية - والهولندية - والالبانية - والعبرية - والهندوكية - والدنماركية - والارمنية - والبلغارية - والبنغالية - والرومانية - والمجرية - واليابانية - والبوهيمية - والصينية - والسويدية - والافغانية - والبنجابية - والسواحلية - والسندية - والجاوية - والهوجداتية .

ومما يؤسف له اشد الاسف ان كل هذه الترجمات محرفة ومغلوطة عن قصد وغير قصد .. بل ان اكثر من قام بهذه الترجمات لم تكن له غاية سوى مهاجمة القرآن والتهويش عليه .. واثارة الغبار من حوله .

ومن حسن الحظ ان الميدان لم يخل لهؤلاء المغرضين وحدهم انما وجد من علماء ومفكري المسلمين من مارس عمليات ترجمة (معاني) القرآن الكريم بحيث امكن توفير طائفه من الترجمات الصحيحة التي يسوغ الاعتماد عليها الى حد بعيد منها :

١ - ترجمة الدكتور عبد الحكيم خان طبعت فى مدينة (بتيالا)

بالهند عام (١٩٠٥) .

٢ - ترجمة (المرزا ابو الفضل الله بادي) عام (١٩١١) .

٣ - ترجمة (باد شاه حسين) على ضوء العقائد الشيعية الامامية طبعت فى الهند عام (١٩٣١) .

٤- ترجمة الدكتور (عبد اللطيف) من حيدر اباد فى الهند .

٥ - ترجمة الاستاذ الانجليزي (محمد مار ماديوك بيكتهال) طبعت فى لندن عام (١٩٣٠) وفى نيبيورك عام (١٩٣١) .

٦ - ترجمة السيد (عبد الله يوسف علي) طبعت عام (١٩٣٥) . فى مدينة لاهور .

٧ - ترجمة الاستاذ النمساوي (محمد اسد) المعروف بمؤلفاته القيمة فى الدفاع عن العقيدة الاسلامية .. وبيان مزايا رسالتنا العالمية وقد طبع الجزء الاول من هذه الترجمة عام (١٩٦٤) فى هولنده .

والواقع ان الحديث عن ترجمة القرآن الكريم يدفعنا لتناول مسألتين على جانب كبير من الاهمية :

الاولى :

مما لانقاش فيه ان المسلم العربي ادق واعمق من المسلم غير العربي شعورا وتحسسا باعجاز القرآن الكريم في نصه العربي من جهة نظمه البديع الرائع ، وبلاغته المدهشة في الالفاظ ، والمعاني ، والصور ، والتراكيب .

وطبقا لذلك يصح الجزم بان كون المترجم عربيا يجعل الترجمة القرآنية قريبة جدا من المعنى الحقيقي .. واكثر

التحاماً به ، وتعبيراً عنه •

ولكن الملاحظ ان معظم المسلمين الذين انبروا لأعمال الترجمة القرآنية هم من (شبه القارة الهندية الباكستانية) ... ـ حيث لم تكن اللغة العربية لغتهم الاولى ـ ومن ثم لم تخلوا اعمالهم مع كل الجهود التي بذلوها من نواقص واخطاء .. وهذا امر يبعث على الحزن بطبيعة الحال ••• خصوصاً اذا علمنا انه لم يتوفر مسلم عربي واحد على القيام بمثل هذا العمل الجليل •• ! !

ولاغرو ان يتساءل المرء عن تفسير لهذه الظاهرة المؤسفة ••ترى هل تعني عدم وجود مسلم عربي يتقن لغة اجنبية .. ؟! ام ان الذين يتقنون لغة اجنبية لايؤمنون بحتمية ووجوب الدعوة الى الاسلام ونشر مفاهيمه الربانية بين الناس عن طريق ترجمة كتاب الله المنزل بلسان عربي الى لغات اخرى •• ؟ ام ان مبعث ذلك انشغالهم بترجمة ما يصدره (الغرب) من اعمال قصص ، ومسرح ، ومجون .. وما ينفثه من سموم فكره الاستعماري الخبيث .. وما ينشره من كتاباته التي تشوه ديننا ، وتحارب قرآننا •• وتفسد اخلاق ، واذواق اجيالنا المسلمة الطالعة .. ؟! وهكذا تتراكم علامات السؤال والتعجب وليس من جواب .. !

المسالة الثانية :

معلوم ان من غير الجائز (للمحدث) مس كتابة المصحف الشريف حتى الحرف الواحد منه ، بل الحركة ، والسكون •• لايمس شيئاً

من ذلك لابيده ولابشيء من جسمه وشعره .. وعلى هـذا الاساس سيواجهنا السؤال التالي :

هل تسري احكام مس كتابة المصحف الشريف على ترجمته ايضا .. ؟ الجواب :لاتسري » (٤٥)

وختاما لابد من كلمة :«ان المترجمين الذين حاولوا ترجمة القرآن الكريم قد عانوا ـ وخاصة المسلمين منهم ـ في ترجمتهم غاية المشقة والجهد مع المطاولة والصبر ، لاظهار ما في طاقة البشر اظهاره مما في النظم القرآني في نصه العربي .. من السلاسة والقوة معاً ، ومافيه من بدائع التخيل وسحره ، وفحولة التعبير ورقة شاعريته . مع محاولة الالمام باطراف معانيه في شفوف لطفها ، وفرط عظمتها وسموها .. ولكنهم وقد خرجوا من هذه التجربة خروج المجاهد المجهود بهذا النجاح المحدود .. لايكادون يستمعون الى تلاوة القرآن العربي المبين حتى تهون عليهم ترجماتهم ، ويظلوا كالمسحورين المغلوبين على امرهم ، حيال تلك الموسيقى (العلوية) التي تتعلق بحروف القرآن نفسها ، فلا يكاد الحرف ينطلق من مخارج الحروف ويطرق الاسماع حتى تتوالى المشاعر على السامعين ، فتبعث النشوة في النفوس ، وتشيع الخشوع في القلوب ، وتهيج الحماسة للجهاد بغية الاستشهاد في سبيل الله .

تلك هي معجزة القرآن الكريم الذي يؤمن المسلمون اجمعون

---

(٤٥) السيد الصدر ـ اجابة خطية خاصة

بأنه كــلام الله أنــزل على محمد العربي (ص) بلسان عربي مبين ٠٠ وقد فصلت أياته في نظم معجز لم يسبق الى بعض بعضه سابق ، ولم يلحق ببعض بعضه لاحق ٠٠ لأنه ـ كما جاء في القرآن نفسه ـ كــلام الله بنصه وحرفه ٠٠ ولاتبديل لكلماته » ٠ (٤٦)

---

(٤٦) عبد الرحمن صدقي ـ القرآن فى الادب العالمي ـ بحث

القرآن والبيئة واللغة العربية

لعل من ابرز خصائص القرآن الكريم واوضح قسماته انه انزل بلسان عربي .. «وانه لتنزيل من رب العالمين .. نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين .. بلسان عربي مبين».

الشعراء ــ ١٩٢ ــ ١٩٥

وفي ضوء هذه الحقيقة نواجهنا تساؤلات عديدة :

لماذا انزل القرآن باللغة العربية .. ؟

وما هو سبب اختيار شبه جزيرة العرب منطلقا وقاعدة ــ للرسالة الخاتمة الخالدة .. ؛

وهل في كون الرسول (ص) من العرب لون من التفضيل لهم على سواهم من الناس .. ؟

وجوابا على هذه التساؤلات نقول :

لقد مر علينا في بحث الناسخ والمنسوخ ان الرسالة الاسلامية هي الصيغة الكاملة ، والمرحلة النهائية الناجزة للاطروحة الالهية العادلة .. وقد كانت اهداف هذه الرسالة تحقيق العدل الكامل في ربوع الارض عن طريق اقامة الدولة العالمية الواحدة ، التي تطبق شريعة الله .. وتنفذ احكامه ، وتبطل شرايع الناس .. وتلغي حكوماتهم .

ولاريب ان الوصول الى هذه الاهداف الكبرى يستلزم تمهيد السبل ، وتصفية العقبات ، وتهيئة الوسائل الكفيلة بتحقيق ذلك وايجاده .

ولاريب – ايضا – ان اهم تلك الوسائل هو اعداد المكان الملائم للعمل والانطلاق .. واختيار الجماعة الصالحة لفهم الرسالة ، المستعدة لحملها .

والشيء الاكيد هو انه لم يكن – في عصر الدعوة – هناك مكان اكثر ملائمة من الجزيرة العربية .. ولم تكن هناك جماعة اكثر صلاحية ، ولااعظم استعدادا من شعبها لحمل هذه الدعوة ، والنهوض باعبائها .

ولكي نعطي الدليل على ذلك ينبغي ان نضع بين ايدينا صورة لما كانت عليه الخارطة السياسية والدينية للارض المعمورة عند بزوغ فجر الرسالة الاسلامية المجيد .

كانت الارض المعمورة – وقتذاك – مقتسمة بين امبراطوريات اربع :

اولا – الامبراطورية الرومانية : فى اوروبا وطرف من آسيا وافريقيا .

ثانيا – الامبراطورية الفارسية : فى قسم كبير من آسيا وافريقيا .

ثالثا ورابعا – الهندية والصينية : وكانتا مقفولتين على نفسيهما .. وشبه منعزلتين عن العالم المعروف آنذاك ، بعقائدهما ، وتصوراتهما ، واتصالاتهما السياسية ، والاجتماعية وغيرها .

وتأسيساً على ما تقدم يصح القول بان الامبرطوريتين الرومانية والفارسية كانتا صاحبتي الاثر الحقيقي ، والنفوذ الفعلي في توجيه

وقيادة البشرية في ذلك العصر .

هـذا مـا كـان مـن شأن الخارطة السياسية ..

واما الخارطة الدينية فقـد برزت عليها الـدياتنان السماويتان اليهوديـة والمسيحيـة .. واللتان اصـابهمـا مـا اصابهمـا مـن تحريف ، وتشويه ، وفساد .. ناهيك عن وقوع اليهودية فريسـة لاضطهاد الرومان تارة .. وتنكيل الفرس اخرى ، حتى لـم تعـد تسيطر في هـذه الارض على شيء ذي بال .. ومـن ثـم انتهت ـ وبسبب عوامل شتى ـ الى ان تكون ديانة مقفولة على بني اسرائيـل وحـدهم .

واما المسيحية .. فانها ولدت وترعرت في ظـل الـدولـة الرومـانية التي كانت تسيطر على كل من فلسطين ، وسوريا ، ومصر وبقية المناطق التي انتشرت فيها المسيحية سرا ، فعاشت خائفة ، متسترة، مطـاردة .. وصارت هدفا لاضطهاد فظيع تخللته مـذابح بشعة راح ضحيتها عشرات الالوف من المسيحيين ، والدعاة الاوائـل .. وعندما تصرمت ايام التشرد والاضطهاد ودخل الامبراطور الروماني (٤٧)في المسيحية دخلت معه اساطير ومعتقـدات الرومان الوثنية .. فطبعت المسيحية بطابع غريب عليها ، وبعيد عنها .

---

(٤٧) هـو الامبـراطور (قسـطنطين) المتوفى سنة ٣٣٧م الذي اعتنق المسيحية وحمل الناس عـلى اعتناقهـا بالسـيف ثم احتضـن الاتجـاه القائل بالوهية عيسى (ع) .. وطارد الاتجاه الآخـر .

وتمزقت الكنيسة مذاهب واتجاهات منطاحنة .. ولم تعد المسيحية هي المسيحية السماوية الاولى ، فقد مسختها العقائد الوثنية ، وشوهتها التعاليم التي لاتمت الى جوهرها الحقيقي بصلة تذكر .

وقد تعرض المخالفون للمذهب المسيحي (الرسمي) للدولة الرومانية الى صنوف من العذاب ، والوان من التعسف والنكال .

وظل واقع الحياة البشرية على الصعيد السياسي ، والديني ، والاجتماعي في تدهور مستمر .. وفساد متزايد .. وانحراف متصاعد حتى ازفت ساعة الخلاص على يد الرسالة الاسلامية الخالدة.. خاتمة الشرايع .. ومتممة التخطيط الالهي لهذه الارض .

ففي مثل هذا الواقع .. بعث الرسول محمد (ص) ـ سنة ٦١٠ م ـ لانقاذ البشرية كلها مما انتهت اليه من تحلل وانهيار .. وتدهور وانحطاط .. وجاهلية عمياء في كل مكان معمور .

جاء الاسلام ليحتل (غرفة القيادة) .. ومن ثم ليوجه السفينة باسم الله .. فى طريق الله .. وعلى نوره وهداه .

ولقد كان من ابسط مستلزمات التخطيط السليم ـ من الناحية السياسية ـ ان يبدأ دين الله الخاتم رحلته من ارض بكر .. بعيدة عن الصراع الدولي في ذلك العصر .. ارض نظيفة لاسلطان فيها لامبراطورية من تلك الامبراطوريات .. ارض يترعرع عليها حرا ، طليقا لاتسيطر عليه فيها قوة غاشمة خارجة

على طبيعته ، ومخالفة لـه في افكاره وتطلعاته .

ولـم تكـن في الارض بقعة بكر ، حرة افضل مـن شبـه جزيرة العرب ـ ومكـة ومـا حـولها بـالـذات ـ التي كـانت تعيش وضعا سياسيا مخلخلا .. فلم تـكن فيها حكومـة نظاميـة ذات قوانين ، وتشريعات ، وجيوش ، وشرطة تقف في وجه الـدين الجديد ، وتمنع الجماهير ـ بسلطانها ـ من الانضواء تحت رايته والالتحاق بركبه .. والمشاركة في مسيرته .

ومـن الواضح ان أي مجتمع أخر ـ غير مجتمع الجزيرة ـ من المجتمعات التي تعيش واقعا فكريا اكثر انفتاحا ، والتي نالت درجة عالية من الرشد السياسي والاجتماعي لم يكن بالامكان تسلم قيادتها بيسر وسهولة ، بل لامناص للدعوة ـ والحالة هذه ـ من الاصطـدام العنيف بكياناتها السياسية الحاكمـة .. مما سيكلفها استنزاف كثير من طاقتها .. وتضييع جزء كبير من قوتها ـ ووقتها ـ في معركـة يحسن تلافيها بسلوك طريق اخر .

وأيضـاً .. كـان مـن أبسط مستلزمات التخطيط السليـم من الناحية الدينية ـ ان تكون قاعدة انطلاق الدعوة فارغة من أيـة ديانة ثابتة .. لها اسس قوية ، واصول متماسكة ، وجذور غائرة تمكنها من الدفاع عن نفسها ووجودها بالمنطق .. او بالسلاح .

ولقد توفر هذا الفراغ في الجزيرة العربية .. فلم تكن فيهـا ثمة ديانة ثابتة ، ذات ملامح واضحة .. ومعالم بارزة ، فالوثنيـة

الجاهلية موزعة بين شتيت من العبادات ، والطقوس ، والعقائد .. فكان للعرب الوثنيين الهة عدة .. من ملائكة ، وجن ، وكواكب ، واصنام .. واما اليهود المحصورون في مناطق محدودة من الجزيرة فقد حولوا يهوديتهم الى طقوس تخصهم وحدهم دون سائر الناس ..وقرروا اغلاق بابها عليهم .. بحيث لم يعد لهم كبير شان اواثر في حياة العرب في ذلك العصر .

هذان هما سببا اختيار شبه الجزيرة العربية اللذان فرضهما منطق التخطيط السليم من الناحيتين السياسية ، والدينية .

ويمكن ان نلحق بهما سببا ثالثا فرضه منطق التعجيز والتحدي الذي يمثل جانبا مهما من جوانب الرسالة الاسلامية .. وتوضيح ذلك هو : ان القوانين الطبيعية الاعتيادية تحكم بان الكتاب ــ اي كتاب ــ ماهو الامرآة لثقافة عصره ومجتمعه الذي عايشه الكاتب ، وتلقى منه ثقافته ومفاهيمه .

فالكتاب تعبير عن مستوى من مستويات الثقافة في ذلك المجتمع او تعبير عن خطوة الى امام في تلك الثقافة .. اما ان يطفر الكتاب طفرة هائلة .. وياتي بافكار ، وتشريعات ، وتعاليم ، ونظم ليس لها صلة بالافكار والمفاهيم السائدة ــ بل وتستنكرها وتحاول قلبها وتغييرها ــ فهذا مالا يقبله منطق القوانين الطبيعية في حدود التجربة التي عاشها الناس في كل زمان ومكان .

ولكن هذا ما حدث بالنسبة للقرآن الكريم .. اذ شع من

اكثر المناطق والمجتمعات تاخرا وضيق افق .. وبدائية افكار ،واكثرها بعدا عن التيارات الفلسفية والعلمية • فالجزيرة العربية لـم تعرف أي نوع من انواع الحضارة والمدنية التي عرفتها ومارستها المجتمعات الراقية ــ نسبيا ــ وقتذاك •

ومعه .. يمكن القول بان اختيار هذه الجزيرة ومجتمعها قاعدة للدعوة العالمية كان هو التحدي الاول للقوانين الطبيعية ..ومنطقهـا الصارم ، الذي يقضي بان الثقافة الجديدة .. والافكـار المتطورة لاتولد الافي ارقى البيئات من الناحية الفكرية والاجتماعية •

وفي هذا ابلغ دليل على كون صياغة القرآن وتعاليمه من قبـل جهة عليا •• تملك التحكم بالقوانين الطبيعية •• وتستطيع الخروج عن منطقها واحكامها .. «وبكلمة اخرى .. ان النتيجة اذا جـاءت اكبر من الظروف والعوامل المحسوسة بحكم الاستقراء للحـالات المماثلة كشفت عن وجود شيء غير منظور وراء تلك الظروف والعوامل المحسوسة » • (٤٨)

والى جوار الاسباب الثلاثة المتقدمة توجد عوامـل اربعة ذات أثر كبير في اختيار شبه الجزيرة العربية وشعبها بؤرة اشعاع لفـكر الدعوة الالهية :

الاول ــ هو ان شعب الجزيرة كان الوريث ــ المنحرف ــ للحنيفية التى دعا اليها ابو الانبياء ابراهيم (ع) وبالرغم من انحرافه

---

(٤٨) السـيد الصـدر ــ الفتاوى الواضحة ــ ج ١ ــ ص ٥٩

وتشويهه للتراث الذي انحدر اليه تاريخيا من دعوة ابي الانبيـــاء فقد كان لايزال يحتفظ بجزء منه .. ويجسده بشكـل او باخـر في سلوكه ، وتقاليده ، وممارساته .

وعودة الى التاريخ .. تبين ان رجالا مـن عقلاء العرب كانـوا يبحثون عن الحنيفية بكل جد ومثابرة . والحنيفية هي دين (ابراهيم) الذي يعدونه أباً لهم..ولقد بلغت حركة (التحنف) اوجها قبل الاسلام مباشرة .

العامل الثاني — هو ان ذلك الشعب يتمتع بصفات ايجابيـة كثيرة .. وخصائص ممتازة نادرة .. كالشجاعة ، والأريحية ، والنخوة ، والاباء ، والكرم ، وما شابه ذلك من الخصال التي قلما تتوفر مجتمعة في غيره .

وبديهة ان هذه الخصال والخصائص تمثل استعدادات ضرورية جدا لتحمل اعباء العقيدة الجديدة ، والدفاع عن مبادئها .. والصمود في خنادقها .

العامل الثالث — هو تركيب الاوضاع الاجتماعية في الجزيرة ، والذي شكل عنصرا مساعـدا له قيمته الحاسمة في حماية الدعوة .. ودرء الاخطار عنها في ادوارها الاولى .. فقد كان النظام القبلي هـــو السائد والمسيطر على الحياة الاجتماعية ، وكان للعشيرة والاهـل وزن كبير ، ومكانة مرموقة في ظل هـذا النظام .. ومن هنا كـانت سيوف الها شميين درعا واقيا لرسول الله (ص) ودعوته في احلـك

الظروف واشد المحن . (٤٩)

العامل الرابع – وهو اللغة العربية .. فانها كانت – عند ولادة هـذا الدين – ناضجة ، راشدة .. وبالتالي فهي صالحة لحمل أفكـار الدعوة والرحيل بها الى مختلف الارجاء .. ولوانها كانت لغة ميتة ، او غير متكاملة التكوين لمـا صلحت لحمل افكار الدعوة ومفاهيمها اولا .. ولمـا صلحت لنقلها الى خارج حدود الجزيرة ثانياً .. ولمـا استحقت ان تكون لغة القرآن ثالثا .

ومن خلال ما قدمناه مـن اسباب وعوامـل يبدو واضحا عمق الحكمة – وروعة التخطيط التي اختارت الانسان العربي حامـلا للدعوة الجديدة .. ولغته لغة لقرآنها .. وبيئته منطلقا وقاعدة لها .

فلقـد كانت اللغة العربية (٥٠) – كـاصحابها وبيئتها – هي الاصلح والاجدر للنهوض بهذا الحمل الثقيل .. والعبء المشرف .

---

(٤٩) ينبغي الا يفهم من ذلك اننا نعتبر الهاشميين الذى دافعـوا عن الدعوة .. وضحـوا فى سبيل انتصـارها .. قد اندفعـوا بتأثير العصبية العشائرية .. او رابطة الدم والقرابة .. كـلا ، فالمقصـود ان المشركين كانوا يحجمون عن تنفيذ كثير من مخططاتهم لضرب الدعـوة وقائدها ، خوفا من انتصـار الهاشميين له والتفـافهم حوله .. وان انتماءه (ص) الى عشيرته اسبغ عليه حصـانة ، وهيبة .

(٥٠) ان الثراء ، والجمـال ، والكمـال الذي تمتـاز به اللغـة العربية ، وقدراتها البالغة على التأثير والتصـوير .. ونقل شتى الوان الاحاسيس والانفعالات بدقة متناهية جعلت المؤرخ الفرنسي (رينان) –

ويبدو واضحا ـ كذلك ان الجزيرة العربية ـ انذاك ـ كانت تحتضن بذور نهضة .. وتجيش بكفايات ، واستعدادات ، وشخصيات تتهيأ لهذه النهضة المذخورة لها في أطواء الغيب .. وما أن بزغت شمس هذا الدين حتى افرزت الجزيرة كوكبة من عظام الرجال ... وانجبت مجموعة من ابطال القادة .. تشكل منهم الرعيل الاول الذي تصدى لحمل الدعوة ، والذود عنها .. والنضال في سبيل تحقيق اهدافها .

كانوا رجالا اسمى من كل الرجال .. وعظماء فوق كل العظماء مجتمعين .. !

ولقد حان الوقت لنلفت انتباه القارى ـ وباهتمام شديد ـ

المعروف بعدائه للاسلام والمسلمين ـ لا يملك نفسه دون اظهار دهشته واعجابه بتفوق اللغة العربية وكمالها حيث يقول :

«ومن بين الظواهر التي اقترن بها هذا الانبثاق غير المنتظر لوعي جديد فى الجنس البشري ـ يعني ظهور الاسلام ـ ربما كانت اللغة العربية نفسها هي الظاهرة الاشد غرابة .. والاكثر استعصاءا على الشرح والتعليل ، فهذه اللغة المجهولة ما قبل التاريخ تبدو لنا فجاءة بكل كمالها ومرونتها وثروتها التي لا تنتهي .

لقد كانت من الكمال منذ بدايتها بدرجة تدفعنا الى القول بايجاز: انها منذ ذلك الوقت وحتى العصر الحديث لم تتعرض لاي تعديل ذي بال .. اللغة العربية لا طفولة لها .. وليس لها شيخوخة ايضا منذ ظهرت على الملأ ، ومنذ انتصاراتها التي لا مثيل لها ..!!! »

احمد موسى سالم ـ حقائق اساسية عن الاسلام ـ ص ١٧٣ .

الى ان اختيار العرب ، وجزيرتهم ، ولغتهم لحمل الـدعـوة والانطلاق بهـا ، لايستبطن اي معنى مـن معاني التمييز .. او اي لون مـن الوان التفضيل لهم على سواهـم مـن ابناء الامم والشعوب التي اعتنقت الاسلام بعد حين .

فهذا الدين ليس اعلانا لتحرير الانسان العربي .. وليس رسالة خاصة بالعرب وحدهم .. كلا ، فان موضوعه هـو الانسان ــ نـوع الانسان ــ وساحة عمله هي الارض ــ كـل الارض ــ «وما ارسلناك الاكافة للناس بشيرا ونذيرا ». سبا ٢٨ «وما ارسلناك الارحمـة للعالمين» الانبياء ــ ٧٠ «قـلْ ياايها الناس اني رسولُ الله اليكـم جميعا » . الاعراف ــ ٨٥

صحيح ان رسـول الله (ص) من العرب ــ والقرآن باللغة العربية ــ لكن دعـوته ، ورسـالته الى العـالم بأسره .. وهي دعـوة من ابرز شـعاراتها ان ليس مسلم عربي اكرم على الله من مسـلم هنـدي ، او فارسي ، او فرنسي .. فالتفاضـلَ فى الاسـلام ــ وعند الله ــ ليس باللون .. او العرق .. او الجنس ، بل بالتقوى والعمل الصـالح .. فمن يعمل لتحقيق اهـداف السماء ، وشريعة السماء ، وخدمة الناس من خـلالها هـو الاصلح .. وهو الاكرم .. وهـو الاجـدر بالتقييم والقـرب من الله عـز وجـل .

وهذا قائد الدعوة (ص) يعلن بكل وضوح :

«ليس لعربي على اعجمي .. ولا لاحمر على ابيض .. ولا لأبيض على اسود من فضل الابالتقوى ».

والقرآن الكريم لـم ينزل ليوظف في خدمة طائفة معينة .. او قومية مخصوصة .. او اهداف ضيقة .. فهو اطروحة السماء العادلة الكاملة التي جاءت لتنشىء واقعاً جديداً .. وتخرج امـة جديـدة .

امة .. لم تكن معروفة ، ولم تكن موجودة .. فهي جديـــدة في وجودها .. وتركيبها ..

وجديدة فى علاقاتها .. وروابطها ..

وجديدة فى ثقافتها .. واخلاقها ..

وجديدة فى مفاهيمها .. وتصوراتها ..

وجديدة فى افكارها .. وخصـائصها ..

امة .. لاتقوم على وحدة العنصر والتراب .. لانها تحتضن كل العناصر والسلالات ، والقوميات .

امة ..لاتقوم وحدتها على وحدة الموقع الجغرافي لافرادهـا ، فأفرادها من كل الامم .. والاوطان .. والقارات .

امـة .. لاتستمد مقومـات وجودها مما تواضع الناس على اعتباره مقوما لوجود الامم .. وركنا اصيلا في كيانها .

انها امة اسـلامية ..

اسلمت وجههـا لله وحـده .. واستسـلمت لمشـيئته وحدهـا .

انها امـة اسلاميـة .. صهرت في بوتقتها عمـاراً العربي ، وبلالا الحبشي ، وسلمان الفارسي ، وصهيباً الرومي .. وآلخت بينهـم في طريق واحد .. طريق الجهاد من اجل الخير .. طريق النضال مـن

اجل السلام لكل الناس والاجناس .. طريق التضحية في سبيـــل تطبيق الاطروحة الالهية العادلة .

انها امة الامم ..

تقوم وحدتها على اساس واحـد كبير .. هـو وحدة العقيدة الشاملة ، الجامعة لما عظم وهـان من شؤون الانسان دنياً وأخرة .

ووحدة الايمان بهذه العقيدة .. الايمان الذي يقرب بين البعيد والبعيد حتى لكأنهما اخـوان .. لان وحـدة الوسائـل والغايات ، ووحـدة المطامح والامـال ، ووحـدة السلوك والعمل ، ووحدة الهموم والتوجهات .. اخت بين القلب والقلب .. وواشجت بين الروح والروح .. فانعدمت الفروق ، وانزاحت الحواجز .. !!

نعـم وبكل تاكيد ـ ليس للعرب المسلمين على غيرهـم مـن المسلمين مـن فضل سوى فضل احتضان وحماية الـدعـوة في جيلها الاول .. وفضل الثبات في الخطوط الاولى دفاعا عنها ايام كانت برعما طريا تتهدده الاعاصير الهوج .

ولا ريب ان احتفاظهم بهـذه الفضيلة منوط بقدرتهم عـلى البقاء دعـاة وحمـاة لهـذا الدين .. والصـمود فى مواقعـه الى ان يحين نصر الله وفتحه .

واخيرا .. فان الحقيقة التي لا يمكن اخفاؤها هي ان القران هو صاحب الفضل الاكبر على الامـة العربية حيث صيرها نواة الامـة الاسلامية .. وعمودها الفقري الذي لاغنى عنه .. وهـو الذي

حفظ للغتها وحدة الشخصية ، وصانها من التبدد والاندثار .. وخلدها وجعلها قبلة للمسلمين ، ومهوى لافئدتهم يحلم كل واحد منهم بتعلمها واتقانها لانها لغة القران .

ولقد اصاب الرافعي بقوله : «ان العرب أوجدوا اللغة مفردات فانية .. واوجدها القران تراكيب خالدة .. وان لهذه اللغة معاجم كثيرة تجمع مفرداتها ، وابنيتها .. ولكن ليس لها معجم تركيبي غير القران .. ! » . (٥١)

هل توجد في القرآن كلمات غير عربية .. ؟

هناك سؤال يتردد على اكثر من لسان :

هل يعني كون القران باللغة العربية انه لايتضمن شيئا من لغات غير عربية ؟

الجواب :

مما لايحتمل النقاش انه لاتوجد في القرآن الكريم جملة مركبه بلسان غير عربي ، انما توجد فيه ــ باتفاق ــ اسماء غير عربية هي اعلام لاشخاص باعيانهم .. كابراهيم ــ واسحاق ــ ويعقوب ــ واسرائيل ــ وموسى ــ وعيسى .

ولكن وجود هذه الاسماء لايخرج القران عن طابعه العربي . لان الاسماء التي وضعت اعلاما لاشخاص تبقى كما هي .. ولايتصرف

---

(٥١) مصطفى الرافعي ــ اعجاز القرآن ــ ص ٢٥٢

بها الذي ينقلها الى غير لغاتها الاصلية .. والا لكان معنى ذلك ازالة الاسم عن مسماه ، واطلاق اسم اخر عليه لايعرف به ولايعنيه.

وتحسن الاشارة الى احتواء القران الكريم على اسماء غير عربية ولكنها ليست اعلاما لاشخاص مثل : استبرق ـ وقسطاس ـ وسجيل ـ ومشكاة وغيرها . وللعلماء في خصوصها آراء متباينة :

الاول ـ ان هذه الكلمات مما اتفقت عليه اللغات ، فهي موجودة في العربية وفي غيرها .. ولذا لايقدح في كون القرآن باللسان العربي ان تكون بعض كلماته موجودة في لغات اخرى ، لان اتفاق عدة لغات في استعمال لفظ ماللدلالة على معنى خاص لايخرجه عن اعتباره أصلا في كل منها .

الراي الثاني ـ ان هذه الالفاظ اعجمية الاصل ولازالت كذلك .. ولكن استخدامها في القرآن لايخلع عنه ثوبه العربي .. حيث ان استعمال هذه الالفاظ نادر جدا .. الامر الذي (ذوبها) في الكثرة الساحقة من الكلمات العربية التي اشتمل عليها القرآن الكريم .

الراي الثالث : ويذهب الى انها اعجمية الأصل ولكنها ـ تبعا لنظرية تداخل اللغات ـ استعملت في اللسان العربي منذ زمن سابق على نزول القرآن ، حتى لانت في ألسنة العرب واصبحت عربية (بالاستعمال) .. وبهذا الاعتبار فان استخدام هذه الالفاظ (المعربة) لايجرد القرآن الكريم من أبرز خصائصه .

والراي الاخير هو من ارجح الاراء واشهرها في هذا الموضوع .

الحروف الهجائية المقطعة

الحروف الهجائية المقطعة في فواتح بعض سور القرآن الكريم ظاهرة تستلفت الانتباه حقا ـ خاصة وقد وردت في بدايات نص يعد أكمل نموذج أدبي استطاعت ان تفصح عنه اللغة العربية بصورة مطلقة.

ونحن لوا حصينا تلك الفواتح لوجدناها تسعا وعشرون، وهي على نوعين :

الاول ـ بسيط لايتعدى حرفا واحدا .. وهو مستعمل في ثلاثة سور (ص ـ ق ـ القلم) اذ تفتتح الاولى بحرف (ص) والثانية بحرف (ق) والثالثة بحرف (ن) .

النوع الثاني ـ مركب .. يتكون من حرفين او اكثر ، فتوجد عشر فواتح مركبة من حرفين .. سبع متماثلة في بدايات كل من سورة (غافر ـ فصلت ـ الزخرف ـ الدخان ـ الجاثية ـ الاحقاف) وتسمى هذه السور السبع (الحواميم) لانها مفتتحة بـ (ح ـ م) ولكن سورة الشورى منها مضموم الى (ح ـ م) فيها الحروف (ع ـ س ـ ق) .

وتتمة السور العشر المفتتحة بحرفين هي (طه) و (ط ـ س) في سورة النحل و (يس) .

واما الفواتح المركبة من ثلاثة احرف فنجدها في ثلاث عشرة سورة .. ست منها مفتتحة بالاحرف (الم) وهي (آل عمران ـ العنكبوت الروم ـ لقمان ـ السجدة)وخمس منها بالاحرف (الر) وهي كل من سورة (يونس ـ هود ـ يوسف ـ ابراهم ـ الحجر) .. واثنتان منها مفتتحتان بالاحرف (طسم) وهي : (الشعراء ـ القصص) .

وهناك سورتان مفتتحتان بحروف اربعة •• احداهمـا (الاعراف) المفتتحة بـ (المص) والاخرى سورة (الرعد) التي اولها (المر) وثمـة سورة (مريم) وهي الوحيدة المفتتحة بخمسة احرف (كهيعص) .

والواقع ، ان العلماء والمفسرين اختلفوا حيال ظاهرة الحروف الهجائية هذه •• حتى احجم كثير منهم عن الخوض في تفسيرهـا ، وتحديد الهدف مـن استعمالها ، واكتفوا بالقول انها علم مسـتور •• وسر محجوب استأثر به الله لنفسه ••!

وبينما تورع هؤلاء .. خاض غيرهم في هذا المجال الى درجـة الاساءة الى كتاب الله تعالـى .. مستغلين صفة اللبس والغموض التي تكتنف هذه الظاهرة ، فصاروا يؤولونها بصورة تساعد على دعم رأي خاص •• او اسناد نظرية معينة •• او ترويج اتجاه محدد .

ولقد استنبط احد المحسوبين على (الشيعة) من هذه الفواتـح صواب ماهو عليه فقال :

اذا حذفنا المكرر من الحروف الهجائية المقطعة فان المتبقي يكون جملة (صراط علي حق نمسكه) •• فرد عليه احد (السنيين) بتلاعب اخر .. واستنبط من الفواتح ذاتها جملة (صح طريقك مع السنة) ..!!

ومن الطريف ان نذكر ـ في هذه المناسبة ـ محاولة البعض مـن هولاء الخائضين فـي تفسير فاتحة سورة مريم (كهيعص) بشكل غريب جداً •• اذ زعم ان (الكاف) تعني كربلا و(الهاء) هـلاك العترة ••

و(الياء) يزيد .. و(العين) عطش الحسين .. و(الصاد) صبره .. !(٥٢)

وقد اعتمد في كل هذا على رواية مرسلة ـ لايعرف قائلها ـ عن الامام المهدي (ع) .. ولاريب ان هذه الاقوال لوصحت روايتها عن المعصوم لأمكن التعبد بها اذا لم يكن لها وجه آخر ، ولكنها وهي ترسل ارسالا .. او يرويها مجاهيل لايمكن الركون اليها او الاعتماد عليها لأن ذلك يفتح الباب على مصراعيه لكل من يريد ان يدلي دلوه ، فيفسر القرآن ـ سيما هذه الفواتح ـ وفق ما يشتهي ، وحسبما يصور له هواه .. استنادا الى روايات تافهة موضوعة .

ونسجا على هذا المنوال يكون من حق احدهم القول بان « الكاف (كلام) والهاء (هراء) والياء (يروى) والعين (عن) والصاد (صفصطائي) .. وهكذا ..!! » . (٥٣)

ولاشك في ان كل مسلم يهمه امر دينه ، يأبى ان يكون كتاب الله عرضة للظنون .. وميدانا للتخرصات والشطحات .

هذا وقد تناول الباحث الاسلامي المعروف (مالك بن نبي) في كتاب : (الظاهره القرآنية) تناول الطابع الظاهري لهذه الحروف الهجائية ، محاولا تحليله واكتشاف الخاصية التي تفصل هذه الايات أساساً عن الفعل البشري .. وبالتالي ليعتبر هذه الفواتح دليلاً ـ من جملة الادلة ـ يوكد ان الذات (المحمدية) ليست الا واسطة للتلقي من

---

(٥٢) ميرزا على الحائري ـ تفسير مقتنيات الدرر ـ ج٧ ـ ص ٢

(٥٣) احمد الوائلي ـ نحو تفسير علمي ـ ص ٣١

علم غيب مطلق .. والا فكيف نفسر ـ كما يقول ـ هذه الحروف الهجائية .. وهي بحد ذاتها كائنات رمزية غريبة عـن مفهوم (الامي) وفكره ، بحيث لاتعني عنده معنى عمليا .. فهل تكون المسالة مجرد اختلال فـي شعور اضطرب مـؤقتاً .. ؟ !

ام ان مرضا عضويا اصاب الجهاز الصوتي عند النبي (ص) فارتبك نظام العلاقات اللغوية بين الحروف والكلمات .. ؟!

ولكن النبي (ص) كما ثبت ـ والكلام لايزال لمالك ـ يمثـل أكمل المعادلات الشخصية مـن جوانبها الخلقية والعقلية والبدنية .. ولسنا نجـد في أدب هـذه الذات الشخصي وهو (الحديث) اي اثـر لتلك المغلقات .. واخيرا فأن تخصص وضع هذه الرموز في بعض السور دون بعضها الاخر فيه دلالة مؤكدة على وجود نظـام ضمني مقصود.. يعمل بارادة ووعي .

ومهمـا يكن من امـر .. فان الدراسات القرآنية الحديثة التي استخدم فيها (الكومبيوتر) تمكنت من اماطة اللثام عن جانب مهم مـن أسرار واهداف ومعاني هذه الفواتح واظهرت حقائق رائعـة فـي هـذا الشـأن .

العقول الالكترونية في خدمة القرآن

ان يسخر الكومبيوتر (العقل الالكتروني) في خدمة القرآن عملية لم تكن بالحسبان .. واغلب الظن ان احدا من العلماء العاملين في حقل صناعة وتصميم هذه الاجهزة الرائعة الدقيقة لم يكن يدر بخلده انها ستدخل في هذا الميدان يوما قط .

اذ ما هي علاقة اعقد جهاز انجبته تكنلوجيا القرن العشرين بكتاب (ديني .. !!) مضى عليه (١٣٦٨) سنة (٥٤) ويرفض نقاده واعداؤه من المستشرقين وغيرهم التسليم بانه كتاب سماوي من عند الله تعالى .

ولكن هذا ما وقع فعلا .. !

ووظف الكومبيوتر في مجال خدمة القرآن .. واستعمل في الكشف عن (بعض) جوانبه التي بقيت الى وقت قريب جدا مجهولة.. ومحاطة بسور شاهق من الغموض والابهام .

ولقد اسفرت هذه العملية عن نتائج رائعة الى حد الدهشة ..

نتائج .. يصح ان توضع في عداد اقوى الادلة على كون هذا القرآن كتابا منزلا من عند الله .. وان محمدا (ص) رسول مبعوث من قبل الله

نتائج .. اثبتت ان هذا القرآن (لاتنقضي عجائبه) .. ولايسبر غوره ، وان اعلاه لمثمر .. وان اسفله لمغدق ، وانه يعلو ولايعلى عليه .

---

(٥٤) بلحاظ ان بعثة النبي «ص» كانت في سنة «٦١٠» الميلادية

ودللت على انـه ــ رغم مرور اكثر من عشرة قرون على نزولـــه ــ لازال ــ وسيبقى ــ هو هو كما أنزل على النبي (ص) لم تسقطمنه كلمة ، ولـم تـزد عليه كلمة .. بـل لـم يـزد عليه ولـم ينقص منه حتى ولا حرف واحد ..!وان الذي انشأ بنيانه احكمه..ووضع فيه ميزانـا حساسا دقيقا .. يـزن الشعرة ، والحرف ، والرقـم .. ميزانا منه واليه ، كامن في تصميمه ، دائـم بدوامـه لايجـــوز عليه الخطأ في حال من الاحـــوال .

ولنبدا الحكاية من اولهــا ..

لقد قـام بعض الباحثين ــ تحت تاثير دوافـع مختلفـــة ــ باستخدام الكومبيوتر في استكشاف جوانب من الاعجـاز البلاغي و(البناء الحرفي) في القران الكريم .. وبعد اجراء عمليات حسابية معقدة ومضنية استغرقت سنوات عديدة خرجوا بنتائج مهمة ، وحقائق مثيرة للغاية .

ومن الجدير بالتنويه ان هذه المحاولات لم تأخذ طابعا جماعيا.. ولـم تلتزم منهجا موحدا ، ولاهدفا محددا .. بـل كانت محاولات فردية ذات مناهج وأهداف مختلفة .. ولاريب في أن اجراء مثـــل هذه العمليات باسلوب موحـد ، ومنهج محـدد .. وتحت اشراف هيئة متخصصة سيوفر كثيرا من الجهد والوقت ، وسيعطي نتائج اكبر، ويكشف حقائق اكثر .

ولنأخذ اولا محاولة الدكتور (علي حلمي موسى) كي نتعرف على النتائج التى توصل اليها بعد قيامه بابحاثه القرانية باستخدام الكومبيوتر .

لقد بدات صلة الدكتور (حلمي) بالعقول الالكترونية عندما استعملها في عمليات حسابية خاصة من اجل اعداد رسالة دكتوراه في(الفزياء الذرية) بجامعة لندن ، وكان هذا منذ عشرين سنة خلت.

وفي سنة (١٩٧١) دفعته الرغبه لدراسة محتويات معاجم اللغة العربية (كالصحاح ، ولسان العرب ، وتاج العروس) عن طريق الكومبيوتر بغرض الحصول على جداول تحدد الحروف في جذور اللغة العربية وتتابعها ، والقوانين التي تحكم هذا التتابع ، وقد حدته دراسة المعاجم العربية الى القيام بدراسة القران الكريم من هذا الجانب ايضا .

وبدا العمل .. وانفق فيه سنوات عدة بالرغم من ان الكومبيوتر من أسرع ، وأدق الاجهزة في المجالات الحسابية والاحصائية . وتلاحقت النتائج ..

فوجد ان عدد الفاظ القران الكريم ــ الاسماء والافعال فقط ــ هو (٥١٫٨٩٩) لفظا .

منها (٧٥٥) لفظا تمثل اسماء الانبياء والرسل .. حيث كان ورود أسم النبي الكريم (ص) (٤) مرات وأسم (ابراهيم) (٦٩) مرة واسم (موسى) (١٣٦) مرة واسم هود (٢٠) مرة ، واسم (لوط)

(٢٧) مرة ، واسم (صالح) (٩) مرات واسماء غيرهم عددا من المرات مختلفة .

ووجد أن (١٦٧) لفظا هي من اصل غير ثلاثي .. اي ان جذور تلك الالفاظ تحتوي على اكثر من ثلاثة حروف مثل برزخ التي وردت في القران ثلاث مرات ، (وخردل) التي وردت مرتين ، (وسلسبيل) التي وردت مرة واحدة .

اما غالبية الفاظ القران فهي ذات اصل ثلاثي .. اي ان جذر كل منها يتكون من ثلاثة حروف مثل:(قرأ ـ كتب ـ ضرب) .. ويبلغ عدد هذه الالفاظ : (٥١ر١٧٥) لفظاً ، ونسبتها الى مجموع الفاظ القران الكريم تساوي (٩٨٪) .

وقد وجد ان (١٨ر١٧٠) لفظا من هذه الالفاظ يبدا بحرف الهمزة و(٤ر٧٩٠) لفظا يبدا بحرف القاف ، يتبعها حرف العين (٣ر٧٥٧) لفظا .. واقل الالفاظ عددا هي ا لتي تبدا بحرف الثاء ، اذ يبلغ عددها (٢٥٣) لفظا .

كما وتبين من خلال دراسة الدكتور (حلمي) ان عدد الجذور الثلاثية المبتداة بحرف الهمزة مثل (اله ـ اتى ـ امن ـ ابق) هو (٧٦) جذرا ، وكل منها تكرر في القران مرات عديدة حتى بلغ مجموع الالفاظ المشتقة منها في القرآن الكريم (٨ر١٧٠) لفظاً .. فالمشتق من الجذر (اله) ـ على سبيل المثال ـ يساوي (٢٨٥٠) لفظا ، بينما لم يشتق من الجذر (أبق) شيء أبداً .. ولذا لم يرد هذا الجذر في القرأن الكريم الامرة واحدة ، وذلك في سورة الصافات .. «وان

يونس لمن المرسلين .. اذ ابق الى الفلك المشحون .. »الصافات ١٣٩ — ١٤٠.

واما الجذور الثلاثية المبتدأة بالسين فقد بلغت (١٠٣) جذور ، وكان مجموع الالفاظ المشتقة منها في القران (٢٤٦١) لفظا .

والشيء الذي يجذب النظر حقاً أن الدكتور (حلمي) تمكن من احصاء جميع الجذور الثلاثية المستعملة في القران واكتشف انها تبلغ (١٦٤٠) جذرا .. وهذا الرقم يمثل — كما يقول الدكتور حلمي — اكثر من ثلث الجذور الثلاثية المستعملة في اللغة العربية .. وهذا شيء يدعو للتوقف عنده طويلاً لأنه يمثل اعجازاً قرآنياً ملفتاً .. اذ ليس في وسع اديب ما — بالغ ما بلغت ثروته الادبية واللغوية — ان يوظف اكثر من ٥٪ من اللغة في اعماله وكتاباته .. وبالتالي فهو عاجز عن الخروج من حلقة هذه النسبة المحدودة .. بل يستمر في استخدامها وتحريكها هنا وهناك في جميع كتبه وانتاجاته .. !

ويؤكد الدكتور (حلمي) ان (٣٧٩) جذرا ثلاثياً — من اصل (١٦٤٠) وردت في القران الكريم — قد استعمل مرة واحدة فقط .. **وهذا وجه من وجوه الاعجاز القرآني المتعددة ، فهو يدل على ان اليد التي صممت هذا القرآن .. وشيدت بنيانه ، يد قادرة على الاستغناء عن استخدام نفس اللبنات والمواد .. وتكرارها من دون الحاجة — الملحة — الى ذلك .. !**

ومن باب المثال أورد الدكتور (حلمي) طائفة من الجذور ال (٣٧٩) التي استعملت مرة واحدة فقط مع ذكر الأية التي ورد فيها

ذلك الجذر :

١ــ (امت) : «لاترى فيها عوجا ولا امتا» طه ــ ١٠٧

٢ ــ (تفث) «ثم ليقضوا تفثهم » . الحج ــ ٢٩

٣ ــ (خلع) : «اني اناربك فاخلع نعليك .. » طه ــ ١٢

٤ ــ (ذهل) : «يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما ارضعت» الحج ــ ٢

٥ ــ (صمد) : «الله الصمد» الاخلاص ــ ٢

٦ ــ (ظعن) : «وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم » . النحل /٨٠

٧ ــ (قصف) : «أم أمنتم ان يعيدكم فيه تارة أخرى .. فيرسل عليكم قاصفاً من الريح » . الاسراء /٦٩

٨ ــ (لفظ) : «مايلفظ من قول الالديه رقيب عتيد» ق ــ ١٨

٩ ــ (نجس) : «ياايها الذين امنوا انما المشركين نجس»التوبة ــ ٣١

١٠ ــ (بحث) : «فبعث الله غراباً يبحث في الارض » المائدة /٣١

١١ ــ (دفق) : «خلق من ماء دافق ..» الطارق ــ ٦

١٢ ــ (سكت) : «ولما سكت عن موسى الغضب اخذ الالواح..» الاعراف ــ ١٥٤

١٣ ــ (طرح) : «اقتلوا يوسف او اطرحوه ارضا .. »يوسف ــ ٩

١٤ ــ (عسل) : «وانهار من عسل مصفى» محمد ــ ١٥

١٥ ــ (كبد) : «لقد خلقنا الانسان في كبد» البلد ــ ٤

١٦ ــ (مشج) : «انا خلقنا الانسان من نطفة مشاج نبتليه» الانسان ــ ٢

١٧ ــ (ينع) : «انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ••» الانعام ــ ٩٩

واخيرا •• توصل الدكتور (حلمي) الى انه بحساب معدل طول الاية في كل سورة .. على حسب ما تحتويه من الفاظ ظهر ان السورة ذات أطول معدل للايات هي سورة (الطلاق) تليها (الممتحنة) حيث ان معدل الاية الواحدة في كل منهما يزيد على سبعة عشر لفظا •• ويأتي بعد هاتين السورتين (المائدة) ثم (التحريم) و (النساء) •

وعند هذا الحد تجب الاشارة الى ان دراسة الدكتور (حلمي) ــ مع كل ما اشتملت عليه من كشف وجدة ــ لايمكن ان تضارع الدراسة القرآنية التي اجراها الدكتور (رشاد خليفة) باستخدام الكومبيوتر أيضاً •• فقد كانت دراسته ذات أبعاد أوسع •• وآفاق ارحب .. لانها تناولت مواضيع مختلفة ومتنوعة ، وخرجت بنتائج باهرة ودقيقة .. اثبتت (بالارقام) ان اعجاز القرآن ليس فقط اعجازا بلاغياً ، او تشريعيا •• انما هو ينطوي على معجزة (حسابية) تفوق حد التصور ، وتتعدى طاقه الجن والأنس مجتمعين .. !!

وما علينا الان سوى ان نودع الدكتور (حلمي) لنلتقي بالدكتور (رشاد خليفة) ..

واول شيء يجب ان نعرفه عن الدكتور (خليفة) هو انه عالم كيمياوي ــ مصري ــ متخصص (بالكيمياء الحيوية) •• وقد كان موضوع رسالته فريدا في نوعه وهو (انتاج البروتين الذي يدخل في

صناعه الاغذية المختلفة من البترول الخام) .. وقد عمل في الولايات المتحدة مستشاراً لاحدى الشركات الصناعية ، ثم غادرها بعد انتدابه من قبل حكومة (ليبيا) حيث يمارس اعماله العلمية في مؤسساتها الان.

والجدير بالذكر ان الدكتور (خليفه) ـ بعد ان احرز النجاح في تجربته القرآنية مع الكومبيوتر ـ قام بتسجيل نتائج ابحاثه في مكتبة (الكونجرس الامريكي) تحت رقم (٢٧٣٨٦) واصدر كتابا ضم خلاصة ما توصل اليه من نتائج ، وعنوان الكتاب

Miraclc of Quran
Islamic productions international in st. Louis mo

وكان السبب في اقتحام الدكتور (خليفة) لهذا الميدان الصعب هو محاولة لفهم معاني (الحروف الهجائية المقطعة) في فواتح عدد من سور القران الكريم ، والكشف عن تفسير مقنع لهذه الظاهرة القرأنية الملفتة .. وقد سبق له ان فتش عن الجواب في مختلف كتب التفسير المعروفة فوجدها تحتوي على طائفة من النظريات والتفاسير المتباينة التي تدور على محور الحدس والتخمين ، بحيث لاتشفي الغليل ، ولا تضع حدا للتساؤل .

وهكذا صار ت هذه الحروف لغزاً محيراً دفع بعض المفسرين الى القول بان (الله سبحانه) وحده الذي يعلم سرها ومعناها .. وتطرف اخرون الى اقوال في غاية السوء والرداءة .

ولكن الدكتور (خليفة) كان يشعر شعورا قويا انه لابد من وجود معان اخرى لهذه(الفواتح)غير التي تعارف عليها المفسرون..لابد

من وجود سر يمكن الوصول اليه بالجد ، والبحث ، والتدقيق .. فليس في كتاب الله ألغاز وطلاسم •• !

ومن اجل الوصول الى هذا السر الخفي استعان بالله تعالى وقام بمحاولة لفهم معانيها . وفي بداية ابحاثه قام بدراسة العلاقة بين هذه الحروف واسماء الله الحسنى في السور ذات الفواتح ، وتبين له عدم وجود علاقة ثابته بين الاثنين •• فحاول تناول الموضوع من زاوية اخرى •• زاوية العلاقة بين هذه الفواتح واسماء الرسل والانبياء ، ولم يحالفه التوفيق ايضا • اد لم يجد أية رابطة محددة ومقبولة .

واعقب هاتين المحاولتين بدراسات كثيرة ، ومن جهات عدة •• لكنها انتهت جميعا بدون جدوى •• ! ومن ثم ادرك انه يسير في طريق مسدود ، فقرر سلوك غيره•••والتجأ الى الكومبيوتر واستخدمه في محاولة لفهم هذه الفوتح الهجائية .

وما ان بدا العمل حتى وجد نفسه غارقا في طوفان هائل من الارقام والعمليات الحسابية المعقدة •• ولم تنحصر نتائج بحوثه في نطاق حروف الفواتح حسب ، انما اتسعت الدائرة لتشمل جوانب شتى من القران الكريم لم يتوقع انه سيتوصل اليها •

ولقد استغرقت هذه الدراسة الفريدة ثلاث سنوات •• نعم ، ثلاث سنوات من العمل الجاد (١) والنشاط المتواصل استطاع فيها

---

(١) مما يجدر ذكره ان الدكتور خليفة متزوج من امرأة امريكية اسلمت على يديه وساهمت معه فى بحوثه وتجاربه القرآنية .

الدكتور (خليفة) ازاحة الستار عن حقائق علمية مثيرة لـم يسبقـه اليها فكر بشري مـن قبل .. !

ثلاث سنوات .. احصى فيها هذا العالم الشاب جميع حروف القران

وعدها حرفا حرفا .. وبالتالي أخذ يغذي الكومبيوتر بملايين الارقام التي جمعها فكان يغذيها برقم كل سورة ، وعدد ايات كل سورة ، وعدد كل حرف في كل سورة .. !

واذا عرفنا ان القران الكريم يتضمن (١١٤) سورة فسوف ندرك جسامة الجهد الذي بذله هذا الرجل في هذه الدراسة .. وضخامـة العمل الذي قـدمه بصبر ، واناة ، وصمت .

وبعد اجراء (٦٣) اكتليون عملية حسابية (أي ٦٣ وعلى يمينهـا ٢٧ صفراً .. !) تمكن من التوصل الى اثبات المعجزة الحسابية للقرآن الكريم باسلوب علمي بعيد عن الظن والتخمين .

النتائج ...

لقد تم للدكتور (خليفة) الكشف عن المدلول العددي لحروف القران الهجائية .. فوجد ان استهلال سورة معينة ببعض الحروف يقابله ـــ دائما ـــ تفوق حسابي لمعدل توارد وتكرار هذه الحروف في (البناء الحرفي) لتلك السورة .

ففي سورة (ق) ــ مثلا ــ وجد هذا الحرف يتكرر بمعدل اعلى من باقي الحروف .. كما كان معدله في هذه السورة يمثل اعلى معدل في سور القران الكريم على الاطلاق .

وهكذا كان الحال بالنسبة للحروف (أ ـ ل ـ م) في بداية سورة البقرة .. والاعجب من ذلك ان معدلات هذه الحروف وردت بشكل تنازلي يتوائم مع تواليها وترتيبها :

أ ــ ورد (٤٥٩٢) مرة

ل ــ ورد (٣٢٠٤) مرات

م ــ ورد (٢١٩٥) مرة

وفي سورة آل عمران كان ترتيب هذه الحروف تنازلياً ايضاً

أ ــ ورد (٧٨٤) مرة .

ل ــ ورد (٥٥٤) مرة .

م ــ ورد (٣٤٤) مرة .

وعندما نلتقي بسورة الرعد المفتتحة باربعة أحرف (أ ـ ل ـ م ـ ر) يكتشف لنا الكومبيوتر ان القاعدة لاتتغير :

أ ــ ورد (٦٢٥) مرة .

ل ــ ورد (٤٧٩) مرة .

م ــ ورد (٢٦٠) مرة .

ر ــ ورد (١٣٧) مرة .

واما بالنسبة للسور المفتتحة بالحرفين (ح ـ م) فان معدلات تواردها تتفوق على السور المكية في القران الكريم ولكن بشرط أن

تضم هذه السور ـ وعددها سبعة ـ الى بعضها ، وينظر اليها كسورة واحـــدة .. !

وكذلك السور المفتتحة بالحروف (أـلـر) ـ وعـددهـا خمسة ـ فانها اذا ضمت الى بعضها فالكومبيوتر يبين أنها ذات أعلى معدلات في نسبة توارد حروفها (أـلـر)على كـل السور المكية في القرآن .

وفي سورة (طه) تكررت نفس العملية مع الحرفين (طـه) وكذا بالنسبة لسورة الاعراف المفتتحة بالحروف (أـلـمـص) .

الرقم ١٩ ميزان .. !!

يصح القول أن اروع النتائج التي توصل اليها الدكتور (خليفة) واشدها اثارة هي اكتشافه العلاقة الوثيقة بين الحروف المقطعة..واول أية في القران الكريم وهي (بسم الله الرحمن الرحيم).

فبينما كان منشغلا في البحث عن اسرار (الفواتح) لاحظ أنآية (البسملة) تتكون من (١٩) حرفا .. وهذا الرقم لايثير فضولنا طبعا.. ولكنه اثار فضوله العلمي فتعقبه .. فوجده يتميز بصفات في اقصى درجات الاهمية بالنسبة لدراسته .

واول شيء ايقظ انتباه الدكتور خليفة هو ان عدد مكرارت لفظة الجلالـة (الله) الواردة في القران الكريم يقبل القسمة على (١٩)حيث انها تكررت بالضم (٩٨٠) مرة وبالفتح (٥٩٢) مرة .. وبالكسر (١١٢٦) مرة .. فصار مجموعها (٢٦٩٨) مرة وهـو مايساوي (١٩×١٤٢)..!

ومن طريف مايذكر في هذا الصدد أن أية (البسملة) وردت في بدايات جميع سور القران ماعدا سورة التوبه مما جعلها تتكرر (١١٣) مرة .. ولكن (مهندس القران) .. ! عوض هذا النقص بايرادها في سورة النحل مرتين .. مرة في بدايتها ، واخرى في الاية (٣٠) منها .. «قالت ياايها الملؤ اني القي الي كتاب كريم انه من سليمان ، وانه بسم الله الرحمن الرحيم» وعندها اكتمل النصاب وتكررت (البسملة) (١١٤) مرة في القران كله ، وهو ما يساوي (١٩×٦) •• !

ومما يثير الانتباه حقا هو الارتباط الواضح بين الرقم (١٩) والحروف الهجائية المقطعة في القران •• اذ كشفت هذه الدراسة القرآنية ان جميع هذه الحروف تتكرر الى مضاعفات الـ (١٩) .. !

فالحرف (ق) في سورة (ق) تكرر (٥٧) مرة وهو ما يساوي (١٩×٣) .. وفي سورة الشورى التي يمثل هذا الحرف احد حروف فاتحتها تكرر ايضا (٥٧) مرة •

والحرف (ص) في سورة (ص) وفي سورة الاعراف المفتتحه بالحروف (أ ل م ص) وفي سورة مريم المفتتحه بالحروف (ك ـ هـ ـ ي ـ ع ـ ص) •• تكرر الحرف (ص) في السور الثلاث (١٥٢) مرة وهو مايساوي (١٩×٨) •

والحرفان (ي ـ س) في سورة (يس) تكررا (٢٨٥) مرة وهو مايساوي (١٩×١٥) •

والحرفان (ط ـ هـ) في سورة (طه) تكررا (٣٤٢) مرة وهو مايساوي (١٩×١٨) •

وقد أثبت الكومبيوتر أننالو أخذنا **السور** السبع **(الحواميم)** والمفتتحه بحرفي **(حـم)** **بصورة مجتمعة فسنجد** أن **هذين الحرفين** يتكرران **(٢١٦٦)** مرة .. اي **حاصل ضرب (١٩×١١٤) .. !**

والحرف **(ن)** في بداية سورة **القلم** تكرر **في السورة (١٣٣) مرة** وهو مايساوي **(١٩×٧)** .

وبالنسبة لسورة الشورى المفتتحه بالحروف **(حـمـعـسـق)** يقول الكومبيوتر لواسقطنا الحرفين (حـم) **وابقينا الحروف** الثلاثـه الاخيرة فستتكرر **بمجموعها** (٢٠٩) مرة **وهـو يعني (١٩×١١)** وفي سورة (الرعد) المفتتحة بالحروف **(أـلـمـر)** **تكررت هذه الحروف** بمجموعها **(١٥٠١)** مرة اي مايساوي **(١٩×٧٩)** .

والحروف الخمسة (كـهـيـعـص) **في سورة مريم تكررت** بمجموعها (٧٩٨) مرة .. وذلك يعني **(١٩×٤٢) .. !!!**

ولايستبعد ان يزعم احدهم بان **هذه القضايا ان هي الامصادفات بحتة .. او شيء من هذا القبيل .. وليس فيها دلالة** على **الاعجاز** والتفوق .. ؟!

والحقيقة ان هذا الزعم **لايستند الى ابسط القواعد** العلميـــة والمنطقية .. ولايقدر ان يقف على قدميه **لحظة .. لان** المصادفة يسكن حدوثها مرة او **مرتين ..** اما اذا حدثت **اكثر من ذلك فانها** تخرج عن وضعها الطبيعي **تماما** .

خذ بيدك ـ **مثلا** ـ اي كتاب لتدرك ان احتمال **ان** تستعمـــل حروف اول **كلمة** من احد فصوله ـ **خلال ذلك** الفصل ـ **عددا من** المرات **يقبل القسمة** على رقم معين عن **طريق الصدفة العمياء هـــو**

امر غير متوقع .. امـا ان تتكرر نفس الظاهرة ـ وبالصدفة ايضا ـ في فصل ثان فهذا احتمال ضعيف جدا . ومن المؤكد ان حدوثها في ثلاثة فصول او أكثر هو في عداد المستحيل !

قوم لوط .. والكومبيوتر ..!!

لقد اظهرت دراسة الدكتور (خليفة) للقرآن الكريم ان سورة (ق) تحتوي على (٥٧) قافا .. وسورة الشورى هي الاخرى تحتوي على نفس العدد من هذا الحرف .. وعندما نجمع الرقمين (٥٧+٥٧) تكون النتيجة (١١٤) .. بحيث يمكن القول انها اشارة الى عدد سور القران الكريم .. سيما اذا اخذنا بنظر الاعتبار بداية سورة (ق) وختامها ففي البداية (ق.. والقران المجيد) وفي الختام (فذكر بالقران من يخاف وعيد) .

وبالنظرة المستعجله لاتبدو في الامر اثارة .. ولكن الكومبيوتر اكتشف، ان سورة (ق) ـ وبالتحديد الاية ١٣ منها ـ تنطوي على احد ابرز وجوه المعجزة الحسابية في القران الكريم .

ومن أجل القاء مزيد من الضوء على ذلك نذكر بأن القرآن الكريم قد دأب على استعمال اصطلاحين مختلفين للتمييز بين من آمن بدعوة لوط .. ومن كفر بها ، الاول (ال لوط) تعبيرا عمن آمن ، كما جاء ذلك في الايتين (٢٩و٦١) سورة الحجر والاية (٢٦) سورة النحل . واية (٣٤) سورة القمر .

والاصطلاح الثاني (قوم لوط) تعبيرا عمن كفر وكذب ، وقد

ورد هذا التعبير في القران (١٢) مرة الاانه عندما ذكرهم في سورة (ق) قال (اخوان لوط) : «وكذبت قبلهم قوم نوح ، واصحاب الرس، وعاد ، وفرعون واخوان لوط » ق ــ ١٣

وحقنا التساؤل : ماهو الـداعي الى الخروج عن القاعـدة .. واستبدال كلمة (قوم) بكلمة (اخوان) .. ؟ !

ويبادر الكومبيوتر بالاجابة :

انه لو استعملت كلمة (قوم) في سورة (ق) بدلا من كلمة (اخوان) لاصبح عدد مكررات (ق)فيها (٥٨) بدلا من (٥٧) .. ومن ثم فقـــد كان لابد من هذا الاستثناء الوحيد لان الرقم (٥٨) لايقبل القسمــة على (١٩).

كان لابد من هذا الاستثناء للمحافظة على التوازن بين سورتي (ق) (والشورى) .. وليظل هذا الحرف مكررا في كل منهما (٥٧) مرة فقط .. !

وهل بعد هــذه الدقة الحسابية المعجزة يسوغ لاحـد ان يهز كتفيــه (بغباء) ليقول انها صدفــة .. او ان يشك فــي كون القران «كتاب احكمت اياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » .. ؟؟

المعجزة الحسابية والرسم القرآني

ان من الاصلح ـ قبل كل شيء ـ معرفة ما هو الرسم القرآني ؟

الجواب : هو الطريقة المتبعة (التقليدية) والمتوارثة في كتابــة القران الكريم .. فالمعروف ان القران يكتب باسلوب خــــاص

لايشبه أساليب الكتابة العادية •• ولا يتطابق مع القواعد المألوفة في هذا المضمار •• فكلمة (صلاة) وكلمة (زكاة) وكلمة (حياة) ـ مثلا ـ تكتب حسب الرسم القراني هكذا : (صلوة) و (زكوة) و (حيوة) وكلمة (ابصارهم) تكتب (ابصرهم) وكلمة (جنات) تكتب (جنت) • • وهكذا كثير من كلمات القران الكريم تكتب باسلوب يعرف بالاسلوب القرأني او (الرسم القرأني) •

ومسألة (الرسم القراني) ـ كغيرها ـ لم تمر بسلام ••انما أثارت موجة من النقاش والانقسام بين العلماء والباحثين أدت الى ظهور اراء ثلاثة :

الاول : ـ راي القائلين بلزوم المحافظة على هذه الطريقة في الكتابة القرانية ، وحرمة كتابة القران بطريقة غيرها••لانها طريقة (توقيفية)•• اي ان الذي وضع مناهجها ، وحدد ضوابطها هو الرسول الكريم (ص) نفسه .. بامر من الله ، لهدف يعلمه الله .. !

ومن المتحمسين لهذا الراي (ابن المبارك) الذي نقل عن شيخه (عبد العزيز الدباغ) قوله : ما للصحابة ولالغيرهم في رسم القرآن ولا شعره واحدة .. وانما هو (توقيف) من النبي .. وهو الذي امرهم بأن يكتبوه على هذه الصورة المعروفة وهو سرخص الله به كتابه العزيز .. فالقرآن معجز في نظمه ، ومعجز في رسمه .. والا فكيف تهتدي العقول الى سر زيادة الالف في(مائة)دون(فئة)وسر زيادتهافي (عتوا) حيث كان ونقصها في (عتو) من سورة الفرقان .. وسر زيادتها في (آمنوا) واسقاطها في (باؤ ــ جاؤ ــ تبوؤ ــ فاو) في سورة البقرة

.. وسر زيادتها في (يعفوا الذي) ونقصها من (يعفو من) في سورة النساء .. وسر زيادتها في (سعوا) في سورة الحج ، دون (سعو) في سبأ .. وسر اثباتها بعد واو (سموات) في سورة فصلت وحذفها في غيرها ، واثباتها في (سراجا) حيثما وقع .. وحذفها في الموضع الذي في سورة الانفال .. واثباتها في (الميعاد) مطلقاً ، وحذفها في الموضع الذي في سورة الانفال .. وسر حذف أحرف من كلمات متشابهة دون بعض كحذف الالف من (قرءنا) في سورة يوسف ، والزخرف وأثباتها في سائر المواضع .. وسر زيادة الياء في (بأييد) و (بأييكم) .

ثم يمضي (الدباغ) الى القول : بأن كل ذلك لاسرار الهية واغرض نبوية .. وانما خفيت على الناس لانها اسرار باطنية لاتدرك الا (بالفتح الرباني) ..! فهي بمنزلة الحروف المقطعة في أوائل السور .. لها اسرار عظيمة ، ومعاني كثيرة ، واكثر الناس لايهتدون الى اسرارها .. ولا يدركون شيئاً من المعاني الالهية التي اشير اليها ..!! (٥٢)

الرأى الثانى : ويذهب الي ان القول بكون (الرسم القرآني) المتوارث ذي طابع توقيفي لم يثبت بدليل ، والمدعي لذلك يجب عليه اقامة الحجة على دعواه .. وهؤلاء القائلين بعدم التوقيف يشددون على الالتزام بهذا (الرسم) .. والتمسك بقواعد واصوله ، لان فيه نوعا من اتحاد الكلمة .. واتفاق الامة على شعار واحد ، واصطلاح واحد .

الرأى الثالث : وهو رأي الداعين الى تحرير القرآن من بعض القيود (الشكلية) .. ومن بينها الاصرار على كتابته برسم معين ، واسلوب

---

(٥٢) الزرقاني ــ مناهل العرفان ــ ج ١ ــ ص ٣٧٦ .

لايتغير .. وابرز ماقرأت في هذا الموضوع رأي للاستاذ (رجاء النقاش) (٥٣) يدعو فيه الى كتابة القرآن بالخط العصري المتداول .. فذلك يعني ـ حسب رأيه ـ ازاحة عقبة كبيرة أمام كل الاجيال الجديدة التي تريد ان تقرأ القرآن فتجد في اسلوب كتابته عناءا شديدا .. قد يؤدي الى صرفها عن هذه القراءة نهائيا .. وهو لايرى بأسا في الاحتفاظ بالمصحف ـ بخطه التقليدي ـ كأثر عزيز من الأثار التي لايسوغ التفريط بها بحال .

ولنترك هذه الأراء المتباينة جانبا .. ونعود الى الدكتور (خليفة) في تجربته مع الكومبيوتر لنرى ماذا وجد في هذا الشأن .

ان هذه التجربة القرآنية الرائعة اثبتت ان اي تغيير في (رسم) حروف القرآن الكريم .. او في هجاء كلماته يحدث ارتباكات جمة في عمليات الاعجاز الحسابي للقرآن ومن هنا فان المصاحف التي ترسم كلمة (الزكاة) و (الصلاة) و (الحياة) بدلآ من كلمة (الزكوة) و (الصلوة) و(الحيوة) وترسم كلمة (بصطة) بالسين بدلا من الصاد .. وتكتب (امرأة فرعون) بدل (امرأت فرعون) .. ان هذه المصاحف لاتظهر فيها المعجزة الحسابية للقرآن الكريم اطلاقا .

اذن..كتابة القرآن ورسمه باسلوب غير اسلوب (الرسم القرآني) يتسبب في حدوث اختلالات حسابية لاعداد الحروف في كل سورة من سور القرآن الكريم .. وبالتالي تتغير نسب ومتوسطات ومعدلات القيم (للبناء الحرفي) في القرآن كله ..!

---

(٥٣) القرآن نظرة عصرية جديدة / ص ٢١٧

ان الكومبيوتر يؤكد على ان طريقة (الرسم القرآني) المتوارثة هي الميزان المحكم ،والحارس الامين الذي يحمي المعجزة الحسابية ويسهر على سلامتها وأية مخالفة لهذا الرسم — ولو في حرف واحد — يؤدي الى اختفاء هذه المعجزة .. واضطراب مقاييسها الدقيقة لأختلال القواعد التي تقوم عليها .. !

والان ربما تسأل : ماهو الرأي الصحيح في صدد موضوع (الرسم القرآني) .. ترى هل هو توقيفي ام غير ذلك ..؟

وكيما تكون الاجابة واضحة فمن الاجدر تقديمها في نقطتين :

الأولى : ان المعجزة الحسابية التي ابرزتها الدراسات القرآنية بواسطة الكومبيوتر تجعل من العسير الاقتناع بأن اتباع هذا الاسلوب في كتابة القرآن الكريم كان امرا (عفويا) اقترحه بعض الصحابة او غيرهم من الناس وبدون التفات لعلاقته المباشرة بمعجزة (البناء الحرفي) التي اظهرت بعض جوانبها التجارب الاخيرة .. والتي يمكن ان تظهر منها جوانب اخرى في مستقبل الايام .. تكون اعمق .. واروع من النتائج الحالية .. من يدري ؟!؟

النقطة الثانية : ان الباحث في هذا الموضوع لايجد دليلا (نقليا) يمكن الركون اليه في تبني فكرة كون (الرسم القرآني) ذي طابع توقيفي .. ومع غياب الدليل النقلي .. وعدم امكانية اثبات مسألة (التوقيف) لانملك سوى القول : بأن الله سبحانه قد اودع كتابه العزيز جوانب اعجازية متعددة .. احدها جانب (الاعجاز الحسابي) في البناء الحرفي للقرآن الكريم .. وهذا الجانب لايظهر الا اذا كتبت كلمات القرآن

باسلوب معين يدعى (الرسم القرآني) .. وطبقاً لذلك فان ظهور هذا الاعجاز لايتم الا من خلال هذا الاسلوب في الكتابة .

ولكـــن ذلك لايعنى ـ كما هو واضح ـ حرمــة كتابة كلمات القرآن الكريم بغير أسلوب الرسم القرآني المتوارث .

معطيات التجارب الألكترونية

بعــد هذا التطواف بين عمليات توظيف الكومبيوتر في خدمــة القرآن فان السؤال التالي يطرح نفسه :

ترى ماهي معطيات هذه العمليات .. وماهي المكاسب التي يمكن تسجيلها لصالح القرآن الكريم من ورائها ..؟

الجـواب :

الواقع اننا لانريد الاطالة فــي تعداد المكاسب التى حققتها هذه العمليات الفذه على صعيد دعم المعجزة القرآنية فــي اكثر من جهة .. وتبعا لدلك فسوف نقصر الكلام على ثلاثة ادلة زودتنا بها هذه العمليات لاثبات ثلاث قضايا :

الاولى ـ ان القرآن من عند الله تعالى .

الثانية ـ ان لا تحريف فى القرآن .

الثالثة ـ ان النبي (ص) لم يغادر الحياة الا بعد ان جمع القرآن وأتم ترتيبــه .

القضية الأولى :

مما لامراء فيه ان النتائج التي توصل اليها الكومبيوتر قد جعلت بمقدورنا ان نقول لأولئك الذين يزعمون انهم اناس(عمليون)لايؤمنون الا بلغة الارقام .. والحقائق العلمية .. والادلة المادية الملموسة .. ومن ثم فهم ينكرون صدور القرآن الكريم من عند الله تعالى ويعتبرونه انتاجاً خالصا لعبقرية بشرية متفوقة ..!

ان بمقدورنا ان نقول لهؤلاء : بأن فكرة تأليف القرآن من قبل محمد (ص) لم تعد صالحة لعصر ما بعد العمليات الالكترونية ..!!

فبدلالة هذه النتائج الباهرة الدقيقة يكون من المستحيل تصور ــ مجرد تصور ــ وجود ذلك النبي الذي يقول لنفسه سلفاً سوف أؤلف سورة البقرة وأجعل اعلى معدلات حروفها هي الاحرف (أ ــ ل ــ م) .. وبشكل تنازلي ، او ان يقول لنفسه : لابد ان استعمل كلمة (اخوان) بدل كلمة (قوم) لئلا ينعدم التوازن بين عدد (القافات) في سورة (ق) وسورة الشورى .. او ان يضع في حسابه استعمال عدد من الحروف تقبل القسمة على الرقم (١٩) وعلى طول المصحف ..!

نعم ــ وبكل حسم ــ يستحيل ان يكون باستطاعة انسان مهما أوتي من عبقرية ، وذكاء ، وقابليات .. ان يؤلف كتابا على مدى ثلاث وعشرين سنة بحيث يضع جداول احصائية مسبقة لحروف كتابه .. وطرق ترتيبها ، وتوازنها .. ومعدلات تحفظ هذا الترتيب والتوازن ..وسبب استحالة ذلك بسيط جدا .. وهو ان هذه العملية لايمكن

أن يقوم بها الا العقل الالكتروني (٥٤) باشراف متخصصين بالعمليات الحسابية المعقدة .. وعلى امتداد فترة زمنية طويلة .. وبتوفير امكانات متقدمة ، وكبيرة .. !

ومن الاكيد ان احدا من (عشاق) لغة الارقام ، والادلة المادية الملموسة لن يستطيع اتهام محمداً الامي(ص)بامتلاك جهاز (كومبيوتر) او ممارسة مسائل الرياضيات العالية .. !!

واذ ينغلق هذا الباب .. لن يبقى لدينا سوى منفذ واحد وهو ان الله تعالى .. العالم بكل شي قبل حدوثه .. القادر على كل شي .. الذي لايعجزه شيء ، هو الذي انزل القرآن على رسوله الكريم (ص) ..«فكان صرحاً تم في ثلاث وعشرين سنة .. تنتظر كل لبنة موقعها حتى يحين ، وينتظرها موقعها حتى تجيء .. حتى تم كتابا متقنا،

---

(٥٤) ربما يتبادر الى الاذهان سؤال : الا يتنافى قولنا بامكانية اتيان الكومبيوتر بمثل القرآن الكريم مع عقيدتنا باستحالة الاتيان بمثله .. ؟ الجواب : لو اقتصر اعجاز القرآن على المعجزة الحسابية لصح ورود هذه الشبهة .. اما وهو ينطوي على اكثر من اعجاز واعجاز فانها باطلة من الاساس . فهب ان باستطاعة انسان ـ بمعاونة الكومبيوتر ـ الاتيان بكتاب يحتوى على معجزة حسابية معينة شبيهة بتلك التى فى القرآن الكريم..ولكن هل باستطاعته تضمين كتابه معجزة تشريعية..وعلمية.. وبلاغية .. واخبار بالغيب ، وغير ذلك من المعجزات التى يتضمنها كتاب الله تعالى .. ؟ لا شك ان استحالة ذلك لا تحتاج الى مزيد كلام وتعليق .

جميلا ، معجزا كمواقع النجوم ..» (٥٥) «أفـلا يتدبرون القرآن .. ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا » النساء ـ (٨٢).

القضية الثانية :

لن نكون مبالغين اذا ماقلنا بأن هذه العمليات قد حركت الارض تحت اقـدام الزاعمين بوجود تحريف فـي القرآن بنحو او آخـر .. وجعلتهم (يبتلعون ألسنتهم) امام نتائجها التي تقف في (صف) أقوى الادلـــة على ان القرآن الموجـــود في أيـــدينا هو ذات القرأن الذي انزل على الرسول الكريم (ص) قبل اربعة عشر قرنا من الزمن ، لم تنل منه يد التحريف ، ولم تتلاعب به الاهواء .. ولم يسقط منه حرف واحد .. ولم يزد فيه حرف واحد .. والا فلا جرم ان هـذه المعادلات الحسابية الدقيقة لمعجزة (البناء الحرفي) لم تكن لتبقى بهذا التناسق البديع .. والتعادل الحكم .. والتوازن المعجز الفريـــد.

وصدق الله : «أنا نحن نزلنا الذكر .. وانا له لحافظون» الحجر ـ

القضية الثالثة :

ان القاء نظرة على نتائج هذه العمليات تبين بجلاء تهافت الروايات الواردة في كتب التاريخ والسيرة المتداولة ، والتي تذهب الى أن جمع القران قد تم بعد انتقال الرسول (ص) الى الرفيق الاعلى (٥٦) فالتحقيق على ضوء النتائج المتوفرة يسوغ لنا استبعاد هذا الاتجاه فـي طريقة جمع القرآن الكريم تماما .. اذ ليس بوسع المرء التصديق بأن احـدا

---

(٥٥) الكوراني/مكة فى ضمير المسلم /ص ٩٣ بتصرف .
(٥٦) عقد السـيد الخـوئي (دام ظله) فصلا ممتعا فى كتابه الجليل =

غير النبي ـ المسدد من السماء ـ يستطيع جمعه في أعلى درجات الكمال،والضبط٠٠بشكل يحتفظ معه القرآن بهذه المعجزة الحسابية التي يمكن ان يطوح بها سقوط كلمة .. بل حرف واحد او زيادة حرف واحد ..!

وعليه فان هذه النتائج أمارة قاطعة على أن النبي لم يغادر الحياة الا بعد ان انجز مهمة جمع القرآن واطمأن عليه ٠٠ وتأكد من احتوائه على الميزان الدقيق الذي يتضمن الدليل الناصع على كون القران معجزة ربانية خالدة ، للاطروحة السماوية العادلة .



(البيان فى تفسير القرآن) تناول فيه روايات جمع القرآن .. وفندها بعد مناقشة علمية عميقة ، واقام الحجة القوية على ان النبي (ص) هو الذي تولى جمع القرآن الكريم ، واشرف على ترتيبه .

عِلم التفسير وأعلام المفسِّرين

التفسير في اللغة هو : الايضاح والتبيين •• وهو مأخوذ من الفسر .. قال في لسان العرب : «الفسر : كشف المغطى .. والتفسير كشف المراد من اللفظ المشكل » • (٥٧)

واما التفسير في الاصطلاح فان لـه تعاريف عديدة .. محصلتها الجامعة هي انه :

« العلم الذي يبحث عن الفاظ القرآن ومعانيه لاستخراج مااشتمل عليه من احكام وتعاليم » • (٥٨)

ومن المدرك ان علم التفسير هو أحد العلوم القرآنية البارزة ـ ان لم يكن ابرزها جميعا ـ لما له من كبير اثر في جلاء معاني القرآن الكريم •• وبيان احكامه ، وتوضيح غوامضه ، وشرح مفاهيمه •

وهو لم يظهر كعلم مستقل متميز ذي قسمات محددة ، وقواعد منظمة ، ولم يأخذ صورته المعروفة اليوم الاعبر عديد من المراحل •• وكثير من التطورات •

اذ كان بادىء أمره ـ شأن جميع العلوم الاسلامية الاخرى ـ بعيدا عن التعقيد والتشعب •• وتعدد المطالب ، وتنوع الاتجاهات ، وتباين الاساليب والوسائل •

الا ان اتساع رقعة الوطن الاسلامي ـ بعد عصر النبوة ـ واعتناق شعوب غير عربية للاسلام ، ودخولها وانصهارها في المجتمع الاسلامي الجديد بما تحمل من افكار ، وتقاليد ، وفلسفات ، ومفاهيم من جهة ••

---

(٥٧) لسان العرب /ج٦/ص ٣٦١

(٥٨) محمد فاروق النبهان/مبادىء الثقافة الاسلامية/ص ١٥٢

وما صاحب ذلك من تلاقح فكري،وتطور ثقافي في المجتمع المسلم من جهة اخرى ــ كل ذلك من العوامل وغيرها ــ أدى الى توسع وتعقيد ، وتشعب في مختلف العلوم الاسلامية خصوصاً علم التفسير الذي نتحدث عنـه .

(مراحل تطور علم التفسير)

ومهما يكن من امر فمن الممكن تلخيص ادوار تطور علم التفسير في ثلاث مراحل :

الأولى : مرحلة العصر النبوى .

الثانية : مرحلة عصر الصحابة .

الثالثة : مرحلة عصر التابعين .

وسوف نتناول ــ فيما يلي ــ كلاً من هــذه المراحــل بشيء مــن الشرح والتفصيل .

(اولا : مرحلة العصر النبوى) :

لما كان نزول القرآن الكريم بلسان العرب،وفي بيئة العرب فقد صار بمقدور الصحابة ــفي هذه المرحلة ــان يفهموا الكثير من معانيه، ومراميه .. ويتحسسوا بروعة اسلوبه ، ويتأثروا بسحر بيانه بتلقائية، وعفوية ملحوظة . سيما من كان منهم واسع الاطلاع في حقل اللغة .. متمكنــاً من أساليبها المتنوعة ، عارفاً بمفرداتها وتراكيبها المختلفــة .

ولكن ذلك لم يجعل الصحابة في غنى عن اللجوء الى رسول الله (ص) لتوضيح ماينبهم عليهم من احكام القران .. وشرح مايخفى من مفاهيمه ومعانيه ..فهم انما كانوا يفهمونه على الجملة ــكما يقال ــ اما فهمه فهما تفصيليا ، تحليليا فهو امر غير ميسور لهم بطبيعة الحال ..

ومن هنا فقد اصبح الرسول (ص) مصدرا اساسيا ـ ووحيدا ـ لتفسير القران الكريم في هذه المرحلة .

ثانيا : مرحلة عصر الصحابة :

يمكن القول ان وفاة الرسول الكريم (ص) كانت خاتمة المرحلة الاولى .. وفاتحة المرحلة الثانية بالنسبة لعلم التفسير القراني .

حيث وجد الصحابة انفسهم وجها لوجه مع حشد كبير من الحاجات والمطالب المستحدثة التي تستلزم استنباط علاجات وحلول نابعة من روح الاسلام ، ومستمدة من مبادئه ، ومنسجمة مع خطوطه ولم تكن هناك من وسيلة (٥٩) سوى رجوع الصحابة الى اجتهادهم وارائهم في تفسير القرآن الكريم ، واستخراج ما يحتاجونه من احكام ، ومناهج لمعالجة الاوضاع والوقائع الطارئة .

وقد فعلوا ذلك اعتمادا على معرفتهم باللغة العربية .. وما يمتلكونه من ذخيرة تفسيرية اخذوها عن الرسول (ص) ابان حياته .. اضافة الى معرفتهم ببعض ما احاط بالقران من ظروف وملابسات واسباب نزول تساعد الى حدما على فهم اياته ، ومعرفة مداليلها .

ولابد من الاعتراف بان الصحابة لم يكونوا على مستوى واحد في هذا المجال .. بل كان بينهم من التفاوت ما جعل بعضهم عاجزا عن معرفة كثير من المفردات والالفاظ الواردة في القرآن الكريم..ومن باب المثال يذكر ان الخليفة عمر بن الخطاب(رض)

(٥٩) بعد غياب القيادة النبوية وعدم تمكن الامامة المعصومة من تسلم مهام الخلافة للظروف الموضوعية المعروفة

قرأ يوماً «وفاكهة وأباً» فقال : هـذه الفاكهة قـد عرفناها فمـا الأب .. ؟! (٦٠) .

ثـم اردف قـائلا لنفسه : ان هـذا لهو التكلف ياعمر .. !! (٦١)
ولم يكن هذا التفاوت في مراتبهم الا نتيجة لاختلاف مواهبهم العقلية، واستعداداتهم النفسيه ، وكثرة مـلازمتهم للرسول الـكريـم (ص) واحتكاكهم به ، واخذهم عنه.

ولاجدال في ان الامام على (ع) كان هـو المجلي في هـذا المضمار ، والمحلق في سمائه .. لانـه كـان اكثر الناس لصوقـا برسول الله (ص) .. وتأثرا به ، وسيرا على نهجه .

وهاهو (ع) يحدثنا عن مكانته من رسول الله (ص) :

«ولقد علمتم موضعي من رسول الله (ص) بالقـرابة القـريبة ، والمنزلة الخصيصة ، وضعني في حجره وانا وليد ، يضمني الى صدره، ويكنفني الى فراشه ، ويمسني جسده ، ويشمني عرفه ، وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه .. ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أمه .. يرفع لي كل يـوم مـن اخـلاقه علمـا ويـأمرني بالاقتـداء به ، ولقد كان يجـاور فى كل سنة بحـراء ، فأراه ولا يراه غيري ، ولم يجمع بيت واحد فى الاسلام غير رسول الله صلى الله عليـه وآله ، وخديجـة ، وانا ثالثهما .. ارى نور الوحي والرسالة ، واشم ريح النبـوة » .

---

(٦٠) السيوطى / الاتقان / ج ١ / ص ١١٣ ، واحمـد امين \ فجر الاسلام \ ص ١٩٦ .

(٦١) الأب هنا بمعنى : الكلأ والمرعى .

ولم يفترق امير المؤمنين (ع) عن قائد الدعوة (ص) في سلم او حرب ...وفي حل أوسفر .. بل كان بين يديه ، ورهن اشارته، وتحت سمعه وبصره .. حتى قبض رسول الله (ص) ورأسه لعلى صدره ، فتولى غسله والملائكة اعوانه .

وبفضل ذلك كله صار ربيب النبوه والقران اوفر الصحابة نصيبا ، واكثرهم جدارة لفهم القران ، واستيعاب اسراره ، وادراك مفاهيمه ، وتطبيق تعاليمه .. ناهيك عن ان صاحب الدعوة (ص) كان حريصا على سكب جميع معارف القرآن في روحه (ع) .. اعدادا له لتسلم الامامة الفكرية ، والقيادة الدينية ، والسياسية بعدغياب الرسول الكريم .. ومن ثم فلاغرو ان صار (ع) قرآناً ناطقا ..

لايتحير من سؤال .. ولايتلجلج في جواب .. !

ولاغرابه ان سمعته الدنيا يقول بثقة منقطعة النظير :

« سلوني قبل ان تفقدوني ...

فوالذي فلق الحبة ، وبرء النسمة لو سألتموني عن آية..آية.. لاخبرتكم بوقت نزولها،وفيم نزلت...وأنبأتكم بناسخها من منسوخها وخاصها من عامها .. ومحكمها من متشابهها ..ومكيها من مدينها .. » (٦٢) .

« سلوني ...

فو الله ما من آية الا وانا اعلم ابليل نزلت ام بنهار .. !» (٦٣) .

---

(٦٢) ارشاد المفيد ـ ص ٢٣

(٦٣) السيوطي ـ الاتقان ـ ج ٢ ص ١٨٧

وكذا كان الامر بالنسبة لجميع الائمة المعصومين من ابنائه (عليهم السلام) .. فهم المعين الذي لاينضب ، والفكر الذي لايعجز.. والكاهل الذي لايكل عن تحمل مسؤولية الدعوة ، وبيان اهداف الكتاب ، وايضاح مفاهيمه ، وفتح مغاليقه .. والكشف عن أسراره .

هذا وقد برز جماعة من الصحابة في ميدان التفسير القراني نظرا لمؤهلاتهم الخاصة .. وصحبتهم الطويلة ـ والمجدية ـ للرسول الكريم (ص) ، وقد شكل هؤلاء الطبقة الاولى من مفسري القرآن .. كان منهم عبد الله بن مسعود،وعبد الله بن عباس ، وابي بن كعب ،وآخرون غيرهم .

ثالثا ـ (مرحلة عصر التابعين)

وبانقضاء المرحلة الثانية بدأت مرحلة جديدة من مراحل تطور علم التفسير .. وهي مرحلة التدوين .. وذلك في أواخر الدولة الاموية وأوائل الدولة العباسية ، وفي هذه المرحلة صار امر التفسير الى تابعي الصحابة الاوائل الذين تجرد نفر منهم لتدوين الحديث النبوى في ابواب عدة كان منها باب التفسير .

وكانت هذه خطوة اولى على طريق استقلال علم التفسير بشخصية متميزة .. اذتمت بعدها عملية فصله عن الحديث العام .. ووضعت تفاسير باسلوب جديد وفق طريقة تفسير القران اية اية حسب ترتيبها في المصحف .

وعند هذا الحد تحسن الاشارة الى صعوبة تعيين المفسر الاول الذي قام بتفسير القرآن أية أية .. ذلك ان كثيرا من التفاسير المبكرة

تعذر وصولها الينا لعوامل شتى .. غير ان أقدم تفسير – استطاع النجاة من الضياع – تنطبق عليه المواصفات اللازمة هو التفسير الذي توفر على انجازه (مقاتل بن سليمان) المتوفي سنه (١٥٠هـ) حيث قام بتفسير القرآن آية آية حتى اتمه بأكمله • (٦٤) وتوجد منه في وقتنا الحاضر مخطوطات عديدة في مكتبات القاهرة ، وتركيا ، ولندن •

(مناهج التفسير)

بعد ان أنهينا الكلام حول المراحل التي مربها علم التفسير .. فمن الضروري التحدث عن مناهجه واساليبه •

ومن حيث العموم فان تفسير القرآن الكريم يتم بواحد من منهجين

الاول : – منهج التفسير النقلي •

الثاني : – منهج التفسير العقلي •

ولنحاول القاء الضوء على هذين المنهجين كل على حده ..

اولا – المنهج النقلي : – ويعتمد هذا اللون من التفسير على جمع الروايات المأثورة التي ينقلها الصحابة والتابعون عن الرسول الكريم (ص) او الائمة المعصومين (ع) •• ويغلب عليه طابع التعرض الى الناسخ والمنسوخ ، واسباب النزول ومعاني الايات ، واقسام القرآن ، وقصص الامم ، وغير ذلك مما ينقل عن السلف •

ومن سلبيات هذا المنهج تحوله وكراً تعشعش فيه اعداد غفيرة من الروايات الموضوعة ، والاحاديث المكذوبة التي استهدف واضعوها ترجيح ودعم المذاهب والمواقف المختلفة التي نجمت جراء الانقسامات

---

(٦٤) د . عبد الله شحاته – القرآن والتفسير – ص ١٦١

الفكرية والمذهبية في مرحلة مابعد وفاة النبي وماتلاها •

ضف الى ذلك التسلل الواضح (للاسرائيليات) التي انتشرت في معظم التفاسير التي تلتزم هذا المنهج ••حيث وجد اصحابه في الروايات والاساطير والحكايات التي يتناقلها اليهود عن كتبهم واحبارهم ، مادة غزيرة (ودسمة) ترضي نهم الناس الى الاستزادة .. وميلهم الى التقصي في معرفة تفاصيل وجزئيات كثير من القضايا والاحداث التي طرحها القران الكريم بايجاز وتركيز••كما هو ديدنه فيما لاحاجة الى تفصيله وزيادة الكلام فيه •

ثانيا ـ المنهج العقلي : وينقسم الى قسمين :

احدهما : التفسير بالاجتهاد : «وهو مايصل اليه المفسر الجامع للشرائط عن طريق النظر والاستدلال .. كاستنباط الاحكام الشرعية عن ادلتها من القران .وعلى العموم ما يستند الى بذل الجهد ، واعمال الراي والفكر ضمن نطاق الادلة» • (٦٥)

«ولابد للمفسر هنا من :

١ ـ ان يتبع الظواهر التي يفهمها العربي الصحيح •

٢ ـ او يتبع ماحكم به العقل الفطري الصحيح فانه حجة من الداخل كما ان النبي حجة من الخارج •

٣ ـ او يتبع ماثبت عن المعصومين (عليهم السلام) فانهم المراجع في الدين ، والذين اوصى النبي (ص) بوجوب التمسك بهم فقال : اني تارك فيكم الثقلين •• كتاب الله ، وعترتي اهل بيتي ••• ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً » • (٦٦)

---

(٦٥) احمد الوائلي ـ المصدر السابق ـ ص ٨

ثانيهما ـ التفسير بالرأي : وهو ان يكون تفسيرا ممن لايملك المؤهلات والملكات الواجب توفرها فيمن يتصدى لمثل هـذا العمل الخطير .. او ممن يمتلكها ولكنه يتبع هواه ، ويجري مـع ميوله وذوقه ، معتمدا على الظنون والاستحسان «او على شيء لـم يثبت انه حجة من طريق الشرع » (٦٧) كل ذلك من أجـل تدعيم رأي مسبق ، او اتجاه تميل اليه نفسه ، ويرتضيه ذوقه وتصوراته .

ولاريب ان التفسير بالرأي ، والاستحسان ، والهوى من أشـد الاعمال حرمة لانه من قبيل اسناد شيء الى الله بغير اذنه .. قال تعالى: «قل آلله أذن لكم ام على الله تفترون » . (٥٩) يونس

ويجمل بنا أن لانوصد باب هذا الموضوع قبل التعرض لذكر عدد من امهات كتب التفسير الاقدم فالأقدم :

الاول ـ (جامع البـيان فى تفسير القرآن) تأليف ابو جعفر محمد بن جرير (الطبري) المتوفى سنة (٣١٠هـ) .. والذي يعتبر كتابه هذا اقدم وثيقة تجمع مضامين التفاسير المبكرة التي لم يقدر لها الوصول الينا لسبب او آخر .

واغلب مايتبع الطبري في تفسيره المنهـج النقلي الا في حالات يقوم فيها «بتوجيه الاقوال ، وترجيح بعضها على بعض ترجيحاً يعتمد على النظر العقلي ، والبحث الحر الدقيق . (٦٨)

---

(٦٦) (٦٧) السـيد الخوئي ـ البيـان ـ ص ٤٢٢

(٦٨) محمد حسين الذهبي ـ التفسير والمفسرون ـ ج ١/ص ٢٠٧ .

الثاني ـ (التبيان في تفسير القرآن) **تأليف الشيخ ابو جعفر محمد بن الحسن الشهير** ب (الشيخ الطوسي) المتوفى سنة (٤٦٠هـ) .. واضع الحجر الاساس لجامعة (النجف الاشرف) الدينية .. التي تخرج فيها أكابر الفقهاء ، والفلاسفة ، والمفسرين ، والمفكرين .

وقد جمع الشيخ الطوسي في تفسيره الجليل بين منهجي التفسير العقلي والنقلي .. ولكن ميله الى المنهج الاول يغلب بصورة امكن معها وضع الشيخ الطوسي في طليعة رواد المدرسة التي تتبنى المنهج العقلي . ولايبعد القول بأن (التبيان) من اقدم التفاسير المصنفة وفق مذهب اهل البيت (عليهم السلام) .

الثالث ـ (مجمع البيان في تفسير القرآن) تأليف ابو علي الفضل بن الحسن (الطبرسي) المتوفى سنة (٥٣٧هـ) . والحق انه ليس من الشطط اعتبار (مجمع البيان) من ألمع ماكتب طبقاً لمذهب أهل البيت (ع) من كتب التفسير واكثرها رواجا . حيث استضاء فيه مؤلفه بمنهج صاحب (التبيان) وترسم مواقع أثاره فأخرج لنا كتاباً رائعاً في بابه ، دالا على تضلع في فنون متنوعة من العلم والمعرفة ، متضمنا لأكثر مايتعلق بعلم التفسير من لغة ، واعراب ، وقصص ، واسباب نزول ، وقراءات ، ومقارنات بين المذاهب الفقهية عند استعراض ايات الاحكام ومايدور حولها من خلاف .

وهو على تنسيقه البديع ، وترتيبه الجميل لم يسلم من تسرب الاسرائيليات والموضوعات التي لاتخفى على الخبير .

الرابع ـ (الكشـاف عن حقائق التنزيل) تأليف جار الله ابـو القاسم محمود بن عمر (الزمخشري) المتوفى سنه (٥٣٨هـ) ويعد هـذا التفسير افضل كتاب يمكن الرجوع اليه لادراك المعجزة البلاغيـة في القران الكريم •• اذ ركز فيه الزمخشري على كشف سر بلاغة القرآن واظهار ما في الوسع اظهاره من وجوه اعجازه من جهة المعنى، والنظم، وجمال الاسلوب الساحر الاخاذ .

ولقد كان لرسوخ قـدم الزمخشري في اللغة العربية وعلومهـا المختلفة كبير اثر في كشفه عن الثروة البلاغية الهائلة الكامنة في ايـات الكتاب العزيز •• والتي لعبت دورا مهما في تحطيم مقاومة المشركين ، ونزع اسلحتهم في مبدأ الدعوة المجيدة ، وجذب قلوب العرب نحـو الدين الجديد .

ولعل جولة في (الكشاف) تكشف عن مهارة صاحبه الفائقة في ازاحة الستائر عن مواطن القوة في بلاغة القران ، وابرازها بأبهى حله ، وأزهى ثوب •• مما جعل كتابه الوحيد في لونه من وجهه نظر العلماء والمتخصصين .

وتجدر الاشارة الى ان الزمخشري كان بارعا في استخدام اسلوبه الخاص في الدفاع الحار عن مواقف واراء اصحابه (المعتزلة) واستعمال سلاح المعاني اللغوية في الذب عن مذهبهم ومعتقداتهم .

الخامس ـ (مفاتيح الغيب) ويقع في ثماني مجلدات •• تأليف ابو عبد الله محمد بن عمر الرازي المتوفى سنة (٦٠٦هـ) •• ضمنـه عددا من مطالب علم الكلام ، والاصول ، والبلاغه ، وكثير من المواضيع المتعلقة بالعلوم الكونية والطبيعية ، ومسائل الرياضيات والفلـك

المعروفة في عصره

السادس - (انوار التنزيل واسرار التاويل) تأليف ناصر الدين عبد الله بن عمر (البيضاوي) المتوفى سنة (٦٨٥هـ) وهو كتاب ملخص من عدة تفاسير كالكشاف ، ومفاتيح الغيب وغيرهما ، وبالرغم من اختصاره فانه يتسم بـدقة العبارة الموصلة الى المعنى بأقرب طريق . وهـو مطبوع في مجلد واحـد .

السابع - (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) تأليف ابو البركات عبد الله بن احمد «النسفي» المتوفى (٧٠١هـ) اختصر هـذا الكتاب من تفسير البيضاوي والزمخشري .. ومـن محاسنه نجاتـه مـن الوقوع في فخ الاسرائيليات الا في القليل النادر .. وقد جاء هذا الكتـاب في اربعة اجزاء متوسطة الحجم .

الثامن - (غرائب القرآن ورغائب الفرقـان) تأليف نظام الدين الحسن بن محمد الحسين (النيسابوري) المتوفى سنة (٧٢٨هـ) .. وهو مختصر من تفسيري الزمخشري ، والرازي مضافا اليـه اراء ووجهات نظر النيسابوري نفسه .. ولمـا كان المؤلف في عداد المتصوفة فانـه كثيراً ما يجنح الى اسلوب الوعظ والارشاد في الامـاكن المناسبة .

التاسـع - (لبـاب التأويل) تاليف علاء الدين ابو الحسن علي بن محمد (الخازن) المتوفى سنة (٧٤١هـ) وهو من التفاسير المشهورة التي يغلب عليها طابـع المنهج النقلي الذي اتـاح للاسرائيليات فرصة التغلغل والانتشار في كثير من صفحاته ، وهـو مع ذلـك يتميز بحسن العرض ، وجمال العبارة ، والاحاطة بالمعنى في الفاظ يسـيرة .

العاشر – (تفسير الجلالين) تأليف جلال الدين محمد المحلي المتوفى سنة(٨٦٤هـ)،وجلال الدين عبد الرحمن السيوطي المتوفى سنة(٩١١هـ)وهو صاحب تفسير (الدر المنثور في التفسير بالمأثور)ايضا

واول من ابتدا بوضع تفسير (الجلالين) هو جلال الدين المحلي ولكن المنية عاجلته قبل اتمامه فأتمه السيوطي بعد ذلك بحين •

وهذا التفسير يتميز بالايجاز وترك التطويل ، مما جعله واسع الشهرة كثير الانتشار والتداول •

الحادي عشر – (الجواهر الحسان فى تفسير القرآن) تأليف ابو زيد عبد الرحمن بن محمد (الثعالبي) المتوفى سنة (٨٧٦) وهذا التفسير ملخص من تفسير (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) لعبد الحق بن عطية الاندلسي المتوفى سنة (٥٤٦هـ) والذي لايزال مخطوطا حتى اليوم ، وقد اضاف الثعالبي الى مانقله عن ابن عطية شيئا من تفاسير اخرى فاخرج بذلك كتابا جامعا لخلاصات كتب مفيدة ، بعيدا عن الحشوو الاستطراد •

الثاني عشر – (السراج المنير) تاليف شمس الدين محمد بن محمد (الشربيني) المتوفي سنة (٩٧٧هـ) ويقع في اربعة اجزاء •• ويمثل خلاصة لبعض التفاسير السابقه مع ذكر شيء من القصص الاسرائيلي الغريب وهو لايكاد يخرج عن منهج التفسير النقلي عموما •

الثالث عشر – (روح البيان فى تفسير القرآن) تأليف أبو الفداء اسماعيل حقي المتوفى سنة (١١٢٧هـ) وهو تلخيص لتفسير البيضاوي

وحواشيه ، وتفسير (ابي السعود) واضافات لاتتعدى بعض الاشارات الصوفية .

الرابع عشر ـ(**التفسير الوجيز**) تاليف السيد عبدالله بن السيد محمد رضا(شبر)المتوفى سنة(١٢٤٢هـ)وهو من اجلاء علماء مذهب اهل البيت وتفسيره على ايجازه عظيم النفع ، كبير الفائدة،واسع الانتشار،ألحق به فهرسا منظما لايات المصحف الشريف .

الخامس عشر ـ (فتح القدير) تأليف محمد بن علي (الشوكاني) المتوفى سنة (١٢٥٠هـ) وهو زيدي المذهب ، أورد في تفسيره هذا كثيرا من الرويات التفسيرية المنقولة عن السلف . وطعمه بآراء من سبقه من المفسرين وتعرض في تفسيره للقراءات ولمذاهب الفقهاء..وتميز بالجرأة والاستنباط ، والمناقشة والاجتهاد .

السادس عشر ـ (**روح المعاني**) تأليف ابو الثناء شهاب الدين محمود افندي (الالوسي) المتوفى سنة (١٢٧٠هـ) ويصح القول بأن (روح المعاني) كتاب جامع لخلاصة ماسبقه من التفاسير فهو ينقل عن الكشاف، والرازي ، والبيضاوي وغيرها ، وهو شديد النقد للاسرائيليات والاخبار المكذوبة .. مع استطراد في ذكر المسائل النحوية والفقهية ، والمسائل الكونية في مواضعها ، ويؤخذ على (الألوسي) تحامله على مخالفيه من المسلمين واتهامهم بما ليس فيهم .. !

السابع عشر ـ (**المنار**) تأليف الشيخ محمد رشيد رضا المتوفى سنة (١٣٥٤هـ) وهو من تلاميذ الشيخ (محمد عبده) لازم الحضور في مجالس دروسه وحرص على تلقيها وضبطها،وكان هدفه من هذا التفسير

هو عين مايهدف اليه استاذه الذي صرح بان الهدف من التفسير هو . فهم للكتاب من حيث هو دين يرشد الناس الى مـا فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا والأخرة • وقد ابتدأ الشيخ رشيد بتفسيره خلال حيـاة استاذه وواصل العمل بعد وفاته ، وكان منهجه وطريقته في التفسير هو عـدم التقيد بأقوال المفسرين السابقين والابتعاد عـن الخوض في الاسرائيليات والمبهمات،والتقليل من المباحث التي خاض فيها السابقون ••واستعاض عن كل ذلك بالتركيز على حل مشكلات القرآن ومناقشة مايثار حوله من شبهات ، ومحاولة التدليل على عظمته وصلاحية أحكامه لتسيير شؤون الناس ، ومعالجة امراض المجتمع بأنجع دواء •

الثامن عشر ـ (في ظلال القرآن) تأليف سـيد قطب المتوفى سـنة (١٣٨٦هـ) يقع في ثماني مجلدات ضخام •• ويعد مدرسـة متميزة وطريقه مبتكرة فـي التفسير •• تتماشى والذوق المعاصر وتشبع الرغبة في معرفة الكثير مما يتعلق بالدعوة وانتشارها ، والاسلام وعظمته •

مؤلفه مفكر اسلامي لامع عرف بأسلوبه المشرق ، وطريقته الرائعةفي عرض مسائل الفكر الاسلامي ، والدفاع عنها بأقوى عبارة ، وأوضح بيـان •

« وقد كانت محاولته في ظلاله محاولة جديدة لاعطاء النصوص مدلولاتهـا الحركية والتربوية .. وربطها بواقـع الحياة المعاصرة •• وابراز جمالها وجلالها ، واستعلائها وكمالها •• فصار كتابه أداة تربية قرآنية لامثيل لها .. فلا يضيع الانسان بوقوفه عند الوسائل بل يجعله دائما على صلة بالغايات التي أرادها النص » . (٦٩)

---

(٦٩) سعيد حوى ـ جند الله ـ ص ٨٣

ولعل من ابرز سمات هذا التفسير الابتعاد عن التعصب المذهبي، واتباع طريقة التفكير الحر في فهم القرآن الكريم ، وبيان مراده اعتماداً على قواعد علم التفسير وفق المنهج العقلي .

التاسع عشر – (الميزان في تفسير القرآن) تأليف العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي .. وهو من اكابر علماء مذهب اهل البيت (عليهم السلام) ومجتهديهم المعاصرين ، وقد انجز تفسير القرآن الكريم ضمن عشرين مجلدا كبيرا فصار – بحق – موسوعة تفسيرية فريدة .. تتمتع بخصائص لاتوجد مجتمعة في غيرها من التفاسير قديمها وحديثها .

وقد كان لبعد نظر المؤلف ، وسعة ثقافته ، وقوة ملكاته ، وتنوع معارفه أثر ظاهر في اسباغ طابع التفرد على كتابه الجليل ، الذي كشف فيه عن رموز القرآن ، وأوضح مافيه من متشابهات .. وأثبت ان في القرآن حلا لجميع المشكلات الفلسفية ، والاقتصادية ، والسياسية .

وطريقة (السيد الطباطبائي) في التفسير هي « ان يذكر الاية ثم يسوق كل ما يتصل بها من أيات ، مع بيان السورة والرقم لكل أية ، ثم يستخلص المعنى الظاهر الذي دلت عليه مجموع الأيات كما لو كانت في سياق واحد ، لان المفروض ان مصدر القرآن واحد ، وانه يعتمد القرائن المنفصلة تماما كالمتصلة ، ثم يعزز المعنى الظاهر ويدعمه بمنطق الدليل على انه لايتعارض مع العقل في شيء .. فاذا تم هذا انتقل بالمعنى القرآني الى حياة المجتمع ، وقارن بينه وبين عقائد الناس وافعالهم ، وعاداتهم على اختلاف اديانهم ومذاهبهم .

ثم يلحق بكل فصل من فصول الكتاب بابا مستقلا يورد فيه طرفا من أحاديث الرسول وأهل بيته ، تتصل بموضوع الايات التي تناولها

بالشرح والتفسير .. فجاءت هذه الطريقة منهجا جديدا يفسر القرآن بالقرآن ، وبالحديث ، وبالعقل ، وبالحياة ان صح التعبير » • (٧٠)

واخيرا .. (التفسير الكاشف) تأليف الحجة الشيخ محمد جواد مغنية •

وهنا لابد من الاعلان عن أني لن اقوم بتعريف الشيخ المؤلف .. فهو أعرف من أن يعرف ..

ولن اذكر شيئاً عن منهجه ، واسلوبه في التفسير لان ذلك واضح في مقدمة الكتاب ومطاوي صفحاته •

ولكني اقول شيئاً وهو : ان هذا الرجل سد ثغرة واسعة في المكتبة الاسلامية عامة ، وموضوع علم التفسير خاصة •

وشيئاً أخر .. وهو ان من أراد تفسيراً ــ موضوعياً ، جامعاً ، مركزا ــ لكتاب الله تعالى فليقرأ هذا الكتاب ..!



(٧٠) محمد جواد مغنية ــ مع علماء النجف الاشرف ــ ص ١٣٤

فلنقرأ ولنتدبر هذا القرآن

لانقاش في ان أعـز شيء تملكه الامـة الاسلامية ـ والبشرية جمعاء ـ هو هذا القرآن •• المعجزة الخالدة للدين الخالد ••

لانه •• النور السماوي •• والدستور الالهي الذي تكفل لها باصلاح الدين والدنيا •• وضمن خير الاخرة والاولى •

ولأنه •• كتابها الحي •• ورائدها الناصح •• ومدرستها الكبرى التي تلقت ـ وتتلقى ـ فيها دروس حياتها الحقة القائمة على العدل ، والامن ، والسلام •

ولانه .. الخط الوحيد الذي بقي مفتوحا بين السماء والارض ، حيث لا يرتجى غيره لتحرير الانسان من الخضـوع لطواغيت الارض ، واصـنام التراب ..!

ونظرا لكل ذلك يكـون حريا بالمؤمن الذي يرنو الى التسامي ، والتكامل ، والصعود •• ان يعكف على كتاب الله آناء الليل واطراف النهار .. يتملى معانيه ، ويستلهم مفاهيمه .. ومن ثم يجسدها سلوكا فـي الحياة ، ومنهجا فـي العمل •

وكم أكد الرسول الكريم (ص) والائمة الهداة من ابنائه الطاهرين (ع) على اهمية تعاهد القرآن ومدارسته ، والتزام تلاوته في كل الظروف والاحوال .. « وعليك بتلاوة القرآن على كل حال » • (٧١)

وفي الحديث الشريف يقول (ص) : «من قرأ حرفا من كتاب الله تعالى فله حسنة •• والحسنة بعشر أمثالها ، لااقول (آلم) حرف ولكن

---

(٧١) من وصيته (ص) لامير المؤمنين(ع). وسائل الشيعة ـ ج٢ ـ ٨٣٩

ألف حرف ،ولام حرف ، وميم حرف » •

وها هوذا امامنا الصادق (ع) يقول :«القرأن عهد الله الى خلقه،فقد ينبغي للمرء المسلم ان ينظر في عهده •• وان يقرأ منه في كل يـــوم خمسين أية » • وتراه (ع) يتساءل :

«مايمنع التاجر منكم المشغول في سوقه اذا رجع الى منزله أن لاينام حتى يقرأ سورة من القرأن فيكتب له مكان كل أية يقرؤها عشر حسنات ، ويمحى عنــه عشــر سـيئات •• » •

واذ نمضي مع السنة الشريفة في هــذا المضمار يطالعنا الامــام ابو جعفر محمد الباقر (ع) بحديث جده الكريم (ص) :«من قرأ عشرة آيات في ليلة لم يكتب من الغافلين •• ومن قرأ مائــة آيــة كتــب مــن القانتيــن •• » •

والملفت ان الشريعة حثت كثيرا على تلاوة آيات الله في البيوت•• وبينت عظيم الثواب ، وجزيل العطاء المعد لمــن في بيوتهم يقرأ القرآن• وهدف الشريعة من ذلك واضح ..

انه الحرص على عدم الفصل بين البيت والجــامع .. او قل : الحرص على مد رقعة المسجد لتحوي البيت ، والمصنع ، والشارع..!

ولنستمع الى الحديث الشريف يرغب في هــذا المجال :

« ان البيت الذي يقرأ فيــه القرآن .. ويذكر الله تعالى فيــه ، تكثر بركته .. وتحضره الملائكــة .. وتهجره الشياطين .. ويضيء لاهل السماء كما يضيء الكوكب الدري لأهل الارض •• ! »

تصور معي .. كــم يكون واقــع مجتمعنا باهرا لوعاش صوت

القرآن مصحوبا بالوعي والتدبر ـ منطلقا من كل بيت محملا بالخشوع والصفاء .. مشعا بالأمن ، والايمان ، والامل .. ؟

وكيف يكون مستوى أجيالنا الصاعدة .. وبراعمنا الطالعة .. وهي تصنع على عيـن الله .. ونوره .. وهـداه .. ؟!

ولاجرم ان لقراءة القرآن الكريم في جميع الاوقات اثـرا جميلا في نفس الانسان ومشاعره .. ولكن لتلاوته في بواكير الفجر الطالع أثـرا يختلف اختلافا جذريا .. فللقرآن أيقاعه المتميز في بداية الفجر وندواتهـا .. ونسماتها الرخية ، وهدوئها الحالم ، وتفتحها بالنور ، ونبضهـا بالحركة ، وتنفسها بالحياة .. « وقرآن الفجر .. ان قرآن الفجر كان مشهودا » . الاسراء ـ (٧٨)

ومادمنا فـي سياق الحديث عـن فضل قراءة القرآن .. وعظيم ثوابها .. وعميق اثرها في نفس المؤمن ووجدانه ، يتعين القول :بان القراءة التي ورد الحث عليها ليست غاية في نفسها .. كلا ، انما أريد منها ان تكون وسيلة وطريقا لادرك معاني كتاب الله ، وهظم مفاهيمه ، وتمثل اهدافه في توجيه النفوس الى الله .. والانتماء اليه .. والاخذ منه وحده سبحانه وتعالى .

المقصود من القراءة ـ هذه ـ ان تكون بوعي ، وتدبر ، وأمعان فكر ، وحضور نفس ، وغوص في الاعمـاق .. وليس طفـواً على السطح وحسب .. فالتلاوة والترنم وحدهما لاينشئان في قلب المسلم وعقله رؤيـة واضحة . بعيدة المدى ، ولايولدان في مشاعره معرفـه مطمئنة ، مستيقنة .. ولا يخلقان في نفسه توهجاً وحيوية .

ولسنا بحاجة الى الاسهاب وكثرة الكلام لاثبات اننا « لن ننتفع بهذا القرآن حتى نقرأه لنلتمس عنده توجيهات حياتنا الواقعية في يومنا وفي غدنا .. كما كانت الجماعة المسلمة الاولى تتلقاه لتلتمس عنده التوجيه الحاضر في شؤون حياتها الواقعية .. وحين نقرأ القرآن بهذا الوعي سنجد عنده ما نريد .. وسنجد فيه عجائب لا تخطر على البال الساهي .سنجد كلماته وعباراته وتوجيهاته حية تنبض وتتحرك وتشير الى معالم الطريق .. وتقول لنا : هذا فافعلوه .. وهذا لا تفعلوه .. وتقول لنا : هذا عدو لكم وهذا صديق .. وتقول لنا : كذا فاتخذوا من الحيطة وكذا فاتخذوا من العدة .. وتقول لنا : حديثا طويلا ، مفصلا ، دقيقا في كل ما يعرض لنا من شؤون .. وسنجد عندئذ في القرآن متاعا ، ودعوة لحياة دائمة متجددة .. لا لحياة تاريخية محدودة في صفحة من صفحات التاريخ » (٧٢)

ومن اجل كل ذلك ورد التأكيد على التدبر في القرآن الكريم وقراءته بمنأى عن السطحية ، والرتابة ، والجمود «افلا يتدبرون القرآن .. ام على قلوب اقفالها » • محمد ـ (٢٤)

وما من شك ان انصراف الناس عن قراءة كتاب الله بحرارة ، وتفكر ، خسارة فادحة لايعوضها شيء • اذ القراءة الباردة ، والخاوية مضيعة للوقت ، وأهدار للجهد ، وبخس لحق القرآن الكريم .. فكل آية من آياته تصنع في النفس ـ عند الغوص في اعماقها ـ آلوانا من

(٧٢) سيد قطب ـ في ظلال القرآن ـ ج ١ ـ ص ٣٨٢

الانفعال والتأثر .. والادراك والمعرفة .. ومن هذا الموقع تتفهم مغزى قول الامام (زين العابدين) (ع) : «آيات القرآن خزائن .. فكلما فتحت خزينة ينبغي لك ان تنظر مافيها» .

ولكن ..

ولكن ــ وهنا يثور الوجع ــ أمر المسلمين مع القرآن في يومنا عجب مافوقه عجب ..!!

اذ صيروه ــ وهو الكتاب الذي يحوي نظاما تريده السماء لحياة الارض ــ شارة لذوي العاهات والمتعطلين .. وموردا للمرتزقة والمتسولين يقرأونه على ابواب المساجد ، وأرصفة الشوارع للتكسب والانتفاع ..!

وحولوه ــ وهم يعيشون قمة الانحراف ــ الى صحيفة طويلة تضم القرآن كله في خط دقيق ضمن أطار فاخر مزخرف يزينون به غرفهم ومساكنهم .. او مصاحف ثمينة مزركشة تنام في علب ملفوفة بالحرير .. يتبادلونها في مناسباتهم .. ويعلقونها في متاجرهم وسياراتهم لتجلب الخير والبركة ، وتدفع السوء والشرور ..!!

انا لاأدري كيف جعلنا القرآن وهو امانه الله لدينا ، واعظم شيء بيننا .. كيف جعلناه قرينا للموت وهو ينبوع الحياة .. فصار لايقرأ الا في مآتم الموتى وفوق قبورهم .. ؟! (٧٣)

---

(٧٣) لا اعرف ــ بالضبط ــ الوقت الذي بدا فيه المسلمون بتلاوة القرآن الكريم فى مآتم الموتى .. حتى بلغ الحال الى هذا المستوى المتعارف عندنا اليوم .. والذي اتخذت فيه تلاوة

وبعد .. فمن الوجب على المسلمين – اليوم – ان يدركوا جيداً بأن بركة القرأن ليست بوضعه في متاجرهم ومساكنهم انما بوضعه

القرآن فى المآتم طابعها (الروتيني) الاحترافي المألوف .

ترى هل كان هذا على عهد الرسول الكريم (ص) او احد ابنائه المعصومين (ع) ..؟وبدون تحفظ يمكن الاجابةبالنفي..والجزم بأن هذه العادة انحدرت الينا من عهود الانحراف عن الاسلام .. يوم ان غابت النظرة الموضوعية لهذا الدين ، وصارت وظيفته مقصورة – فى نظر البعيدين عن روحه – على طقوس تغسيل الموتى ومراسيم دفنهم .. واذا ارتفعوا قليلا فعلى بعض مسائل ما يسمى (بالاحوال الشخصية) ..!

ولعل سائلا يسأل : وهل فى قراءة القرآن الكريم فى مآتم الاموات ضرر ؟ واقول لبثقة كاملة : نعم كل الضرر .. فهي عملية عرضته الى خسارة فادحة .. اذ ربطت بينه وبين الموت بسبب وثيق .. حتى صار سماعه يبعث فى نفوس الكثيرين شعورا لا يمت الى حقيقة اهدافه ابدا .. شعورا بالكآبة ، والقنوط والسلبية ، والخوف من المجهول .

لقد حالفت هذه العملية – من الناحية النفسية لكثير من الناس بينه وبين الموت والاحزان ، وباعدت بينه وبين الحياة والمسرة .. افهل سمعت قرآنا يتلى فى أفراحنا ومسراتنا ، او عند ولادة مولود جديد مثلا ..؟! جرب مرة الطلب الى احدهم – فى مناسبة مفرحة – تلاوة القرآن ، وعندها لا تندهش اذا بادرك فاغرا فاه : وهل نحن فى مآتم .. ؟؟!!

وفى هذا السياق ينبغي التنويه بان تلاوة القرآن الكريم واهداء ثوابها الى الاموات – بحد ذاتها – مسألة لا غبار عليها ولا اعتراض .. بل هي سائغة ومحبوبة ، كغيرها من اعمال البر والخير التي يقصد بها وجه الله تعالى ويهدى ثواب فعلها الى الاموات تخفيفا للسيئات ، وتصعيدا للحسنات .

في قلوبهم وافكارهم •

ويدركوا ـ كذلك ـ ان الله لم ينزله ليكون تميمة في اعنـــاق الصبيان والمعتوهين •• وانما ليكون منهج حياة •• ودستورامـــة •• وشريعة مجتمع •• ومصدر قوانين تنظم حياة الناس وتطورها وتنميها•• وتمنحها مداها الابعد •• وتفتح لها افقها الارحب •

وخلاصة القول:ان اعظم ما يجب على المسلمين هو ان يقرؤاالقرآن ويتلونه بتحسس ، وتدبر ، وانفتاح •• عاملين على تطبيقه ••نظماً •• ومفاهيم •• وتوجيهات •• وتصورات

وبذا ـ فقط ـ يكونـون حقا امة القرآن •• !



المعجزة سلاح الأنبياء

١ ــ منصب النبوة ــ ولاشك ــ منصب الهي جليل ، ومرتبة سماوية رفيعة لاتساوقها مرتبة .. ولاتدانيها مكانة .

ومن ثم فلاغرابة ان يكثر المدعون لهذا المنصب ، والراغبون فيه ، والمتنافسون عليه .. وفي غمار هذا التنافس ، وخضم تلك الرغبة تضيع الحقيقة ، وتحدث الفوضى ، وتضطرب المقاييس .. حيث يشتبه الصادق بالكاذب ، ويختلط المحق بالمبطل .

اذن .. لابد من وسيلة للفصل والتحديد ، ودليل للفرز والتمييز ، وكانت المعجزة هي الوسيلة .. وهي الدليل .

والمعجزة : عمل خارق للقوانين الطبيعية (٧٤) ــ بقدرة الله تعالى ــ يقدمه مدعي المنصب الالهي دليلا على صدقه .. وصحة مدعاه

---

(٧٤) للدكتور مصطفى محمود رأي فى تعريف المعجزة يتلخص فى ان المعجزة هي : عملية تفاضل بين القوانين الطبيعية وليس خرقا لها.

تماما كما تطير الطائرة فى الجو .. وكما يصعد الماء فى ساق الشجرة ..! بقانون .. وهي حينما تطير لا تخرق قانون الجاذبية وانما هي تتجاوزه بقانون اخر هو قانون الفعل ورد الفعل .

والماء عندما يصعد فى ساق الشجرة معاكسا للجاذبية لا يخرق قانونها وانما يتجاوزه بمجموعة قوانين (فسيولوجية) تتفاضل معه .. هي قانون العمود المائي ، والخاصة الشعرية ، وقانون الضغط الازموزي وهي جميعها قوانين تؤدي الى شد الماء الى اعلى.

وبناءا على هذا تكون المعجزة عملية استخدام لظاهرة التفاضل بين القوانين الطبيعية لا خرقا لتلك القوانين . راجع مصطفى محمود ــ حوار مع صديقي الملحد ــ ص ١١٥

والمعجزة ــ عند اقامة الحجة ــ ممكنة بل وضروريه..وعليهاقامت الدعوة في خط الانبياء الطويل .

والملاحظ ان الناس يطالبون مدعي النبوة ــ قبل كل شيء ــ ان يبرهن على صدقه بعمل لايتأتى الالمن تدعمه السماء .

انهم يتحدونه في ان يجيء بفعل لايسع غيره الاتيان بنظيره .

وفي مقام التحدي لايجد المدعي ــ الصادق ــ مفرا من اشهار سلاحه .. والمعجزة سلاح الانبياء .. !!

واذا ماانتصر النبي وجاء بالمطلوب ، وجب اتباعه ، والايمان بدعوته ، والانقياد لامره ، ولما يأتي به من عند ربه .

وليس اهم من التنبيه الى ان الأتيان (بالمعجزة) لايكون برهانا على صدق المدعي لمنصب الهي ــ وان عجز غيره عن الأتيان بمثلها ــ الامع عدم تعارض دعواه مع حكم العقل ، وحكم النقل الثابت عن المعصوم (ع) .

ولمزيد من التوضيح نفترض ان انسانا ما زعم انه اله ، وجاء باعمال معجزة خارقة لقوانين الطبيعة .. !

ترى هل يجوز لنا تصديق مزاعمه وادعاء اته .. ؟!

الجواب : كلاطبعا .. لان هذه الدعوة باطلة من الاساس .. لاستحالة ان يكون الخالق مخلوقاً .

وكذا لايسوغ تصديق مدعي النبوة بعد نبينا الكريم (ص) ــ وان جاء بالف الف معجزة ومعجزة ــ لتحقق كذبه ، وزيف دعواه،

بما ورد في القرآن الكريم •• وتواتر عن رسول الله (ص) وخلفائه الائمة المعصومين (ع) بانه خاتم النبين وشريعته خاتمة الشرايع . «ماكان محمد أبا احد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين» • الاحزاب / ٤٠ •

٣ — من المدرك ان الاتيان بالمعجزة خصيصة مشتركة بين الانبياء جميعا .. لانها البرهان القاطع — والوحيد — الذي يثبتون به صدق ما يدعون .. وان كانت معاجزهم تتباين عن بعضها جريامع تباين عصر ، ومجتمع ، وظروف كل منهم (ع) •

وانعام النظر في تاريخ الانبياء الكرام يكشف بجلاء انه ما من احد منهم الاوجاء بمعجزة تتناسب وارقى علوم عصره وفنونه .. لان ذلك يجعل المعجزة اقوى حجة واكثر قدرة على الاقناع والبرهنة .

وهذه معجزة موسى (ع) مثلا يقرب مانقول .. فقد بعث في عصر راج فيه السحر وكثر السحار المتمرسون بفنهم .. المتمكنون من اسراره .. العارفون بحدوده وأساليبه وتنيجة لذلك صاروا يقومون باعمال (سحرية) تثير الدهشة والانبهار .. !

ولكنهم لم يملكوا الا الاذعان لموسى (ع) .. والتصديق بدعوته حينما شاهدو اعصاه تنقلب ثعبانا وتلقف مايأفكون .

ترى لماذا اذعن السحار ..؟

اذعنوا لانهم عرفوا ان ما فعله (موسى) خارج عن حدود السحر .. واكبر من طاقاته .. واعظم من قدراته ، ولذا ادركوا انه ليس من قبيل السحر ونوعه •• فصدقوا وامنوا •

والمثال الاخر .. معجزات المسيح عيسى (ع) فانها لاتنفك عن هذه القاعدة ـ قاعدة ان تكون معجزة النبي من نمط ما يعرف في عصره من علوم وفنون .

فلقد عج عصر المسيح بانتصارات في ميادين الطب هائلة .. فصار (ع) يشفي من المرضى من لايرجى شفاءه .. انه يبرءالاكمه والابرص ..!

ويحيي الموتى .. ايضا .. !!

وهل فوق ذلك برهان واعجاز .. ؟

وهل أقوى منه دليلا على انه نبي تسنده السماء ؟

وهكذا هو الامر بالنسبة لمعجزة رسولنا الكريم (ص) .. انه القرأن معجزة المعاجز .. الذي انزل في زمن كان الشعر ـ وصناعة الكلام ـ نورا يضيء ايامه .. «ويعكف اهله على بيانه عكوف الوثني للصنم .. ويسجدون لآياته سجدة خاشعة لم يسجدوا مثلها لأوثانهم قط ، فقد كانوا عبدة البيان قبل ان يكونوا عبدة الاوثان .. وقد سمعنا من استخف منهم بأوثانهم ولم نسمع منهم من استخف ببيانهم» . (٧٥)

وتحدى رسول الله (ص) ـ بالقران ـ العرب قاطبة .. !
تحداهم ان يأتوا بمثله .. أو بمثل آية من أياته .. فعجزوا جميعاً .. وعقدت الدهشة السنتهم جميعا .. واظلت الحيرة عقولهم جميعا .

عجزوا واندهشوا وهم عمالقة البلاغة ، وفرسان البيان ، ورضخوا

---

(٧٥) مالك بن نبي ـ الظاهرة القرآنية

للتحدي الكبير .. وذلت رقابهم لمعجزة السماء ، وذاقوا ـ لاول مرة ـ مرارة الهزيمة في ميدان ما عرفوا الهزيمة فيه ابدا .. انه ميدان البيان .

ولم يجرؤا امام هذا التحدي ان يجربوا أنفسهم ولو مرة لمعارضة القرآن بشيء .. ايمانا منهم بأن الادب القرآني فوق قدرتهم الفنية واللغوية .

وراح الوليد بن المغيرة وهو سيد من سادات قريش ذاخبرة عريضة بفنون البلاغة واساليبها يقول مبهوتا :

«والله لقد سمعت كلاما ما هو من كلام الانس ، ولامن كلام الجن .. وان له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة .. وان اعلاه لمثمر ، وان أسفله لمغدق ،وانه ليعلو وما يعلى .. وانه ليحطم ما تحته .. !!

٤ ـ لقد اوضحنا ـ سابقا ـ ان الرسالة الاسلامية هي الصيغة النهائية ، والحلقة الاخيرة للاطروحة السماوية العادلة الكاملة .. والدين الالهي الذي لايعقبه دين سماوي اخر ، بل ولايأتي دين جديد بعده بصورة مطلقة .

وعلى هذا الاساس كان من اللازم تزويد هذه الرسالة بمعجزة دائمية خالدة .. تستمر مع الايام ، لايلغيها التاريخ ولايبطلها تغير المستوي العقلي ، او العلمي ، اوالثقافي للبشرية ، واختلاف ظروفها ، الحياتية ، واحوالها المعاشية .

كان من اللازم تزويد هذه الرسالة بمعجزة ليست من قبيل معجزات الأديان السابقة ..«مجرد توابع يتركها الدين عبر التاريخ بعد مرحلة

التبليغ (الموقوتة) مثل اليد عند موسى اوعصاه التي لم يبق لها اثر حتى في متاحف العالم ، كما بقيت عصا (توت عنخ أمون) الذهبية» • (٧٦)

فما هي المعجزة التي زودت بها هذه الرسالة الخاتمة ؟

الجواب :ـ انها القرآن الكريم ••

القرآن الذي تضمن عدة الوان من الاعجاز في اطار واحـد •• اعجاز بلاغي •• واعجاز علمي •• واعجاز تشريعي •• واعجاز في جانب الاخبار بالمغيبات ، وألوان اخرى مـن الاعجاز لايحيط بها الحصر والتعداد •

ومن الواضح ان هذه (التشكيلة) الرائعة من الالوان الاعجازيـة جعلت هذا القرآن صالحا لان يكون (حجة) باهرة لكـل الاجيـال في مختلف الازمان والظروف ..حجة تستمر مع استمرار الحاجة الى هذه الرسالة لتنظيم حياة الانسان واسعاده ، وتكميله .

وسوف تتوفر ـ في القسم الثاني من هذا الكتاب ـ على تناول مختلف ألوان الاعجاز القرآني •• ومواضيع اخرى باذنه تعالى •

وآخـر دعـوانا ان الحمـد لله رب
العـــالمين

النجف الاشرف — مجيد المسلماوي

---

(٧٦) مالك بن نبي ـ المصـدر السابق

محاولتنا القادمة ـ باذنه تعالى :

العمل الاسلامي

(أقسامه / شروطه / مجالاته / معطياته)



مصـــادر الكتـــاب

١ ـ وسائـل الشيعة	الحر العاملي
٢ ـ سيرة بن هشام	تحقيق مصطفى السقا
٣ ـ تاريخ الطبري	محمد بن جرير الطبري
٤ ـ نهج البلاغـة	شرح بن ابي الحديد
٥ ـ مناهل العرفان	لـلزرقـاني
٦ ـ لسان العرب	ابن منظور
٧ ـ الاتقان	السـيوطى
٨ ـ الميزان في تفسير القرآن	الطباطبائي
٩ ـ في ظلال القرآن	سيد قطب
١٠ ـ تفسير مقتنيات الدرر	ميرزا علي الحائري
١١ ـ اوائل المقالات	الشيخ المفيـد
١٢ ـ الارشاد	الشيخ المفيـد
١٣ ـ البيان في تفسير القرآن	السيد الخوئي دام ظله
١٤ ـ الفتاوى الواضحة	السيد الصـدر دام ظله
١٥ ـ اقتصـادنا	السيد الصـدر دام ظله
١٦ ـ موسوعة الامام المهدي	السيد محمد الصـدر
١٧ ـ الهدى الى دين المصطفى	الامـام البلاغي
١٨ ـ فلسفة الصلاة	علي الكوراني
١٩ ـ مكة في ضمير المسلم	علي الكوراني

٢٠ ــ اعجاز القرآن	مصطفى الرافعي
٢١ ــ فجر الاسلام	احمد امين
٢٢ ــ في رحاب القرآن	محمد حســن أل ياسين
٢٣ ــ مباحث في علوم القرآن	صبحي الصالح
٢٤ ــ بحث حول المهدي	السيد الصــدر دام ظله
٢٥ ــ في انتظار الامــام	عبد الهادي الفضلي
٢٦ ــ القرآن في الاسلام	محمد حسين الطباطبائي
٢٧ ــ التفسير والمفسرون	محمد حسين الذهبى
٢٨ ــ القرآن والتفسير	عبد الله شحاته
٢٩ ــ مع علماء النجف الاشرف،	محمد جواد مغنية
٣٠ ــ موجز علوم القرآن	داود العطار
٣١ ــ ترجمات معانى القرآن	عبدالله عباس الندوي
٣٢ ــ القرآن والترجمة	عبد الرحيم محمد على
٣٣ ــ رسالتنا	جماعة العلماء
٣٤ ــ حوار مع صديقى الملحد	مصطفى محمود
٣٥ ــ اسرار القرآن	مصطفى محمود
٣٦ ــ نحو تفسير علمي	احمد الوائلي
٣٧ ــ القرآن نظرة عصرية	عدد من الباحثين
٣٨ ــ مبادي الثقافه الاسلامية	محمد فاروق النبهان
٣٩ ــ مجلة الهلال	المصرية

٤٠ ـ مجلة آخر ساعة المصرية

٤١ ـ مجلة التربية الاسلامية العراقية

٤٢ ـ مجلة رسالة الاسلام العراقية

٤٣ ـ فتاوى خطية خاصة السيد الصدر دام ظله

محتويات الكتاب

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة